مُقَدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين أما بعد ؛ فإن تماسك النص من الاتجاهات الحديثة في دراسة النصوص الأدبية وقد تبلورت ماهيته وأسسه في الربع الأخير من القرن الماضي على يد هاليداي ورقية حسن ومن تبعهما في هذا المجال والبحث الذي بين أيدينا يحاول تطبيق أسس تماسك النص بين التراث والغرب على النص النبوي الشريف ويكشف عن وظيفة هذا الاتجاه الجديد وجذوره عند البلاغيين القدماء في دراسة النصوص البيانية ويلفت نظر الباحثين إلى كيفية استثمار هذا الاتجاه في التطبيق على مزيد من النصوص الفصيحة ؛ لأن التماسك النصي أهم مظهر من مظاهر التحليل النصي إن لم يكن الأساس في التحليل.

وتكمن أهمية هذا البحث في الكشف عن كيفيّة التطبيق والتحليل – بمنهج التحليل الوصفي والفني – لأهم أسس التماسك النصي في النص النبوي بين علم اللغة الحديث وعلم البلاغة عند العرب القدماء.

ولم يكن اختياري للحديث الشريف، لأثبت أنه نص، فهذا أمر محسوم؛ بل لأحاول الكشف عن أهم وسائل الترابط النصي التي قام بها النص النبوي وكان له هذا التماسك والترابط وأبقى له أثره عند مستقبليه على مر الزمان.

وقد وقع اختياري على أحاديث تعبر عن أهم القيم الاجتماعية التي تمثل الدعائم الرئيسة في المنهج الإسلامي الذي دعا اليه صلى الله عليه وسلم وهى : رضا الله ورضا الوالدين ومعايير التعامل الأخلاقي بين أفراد المجتمع المسلم في جميع مناحي الحياة وقد اقتصرت على ستة أحاديث تكشف عنها في حديثه صلى الله عليه وسلم وكنموذج يجلي الترابط النصي في الحديث النبوي .

وختاماً أشكر عائلتي وكل من له يد من أساتذة أو زملاء في مساندتي لإتمام هذا البحث، والله الموفق إلى سواء السبيل.

الباحثة

التمهيد

تدور مادة(نص) في لغة العرب حول معنى : الظهور والبروز والارتفاع يقول الفيروز أبادي : "نصّ الحديث رفعه ونصّت الدابة جيدها إذا رفعته ونصّت العروس إذا رفع مكانها وأبرزت ومنه فلان ينصُّ أنفه غضباً وهو نصّاص المتاع : جعل بعضه فوق بعض "[١]

أما في الثقافة الغربية " فإن لفظ Texte في المعجم الفرنسي مأخوذة من مادة (Textus) اللاتينية التي تعني النسيج كما تطلق Texte على الكتاب المقدس أو كتاب القداس ...

كما تعني ترابط حكاية أو نص والذي نلاحظه في المعنى اللغوي لمادة Texte أنها تدل دلالة صريحة على التماسك والترابط و التلاحم بين أجزاء النص وذلك من خلال معنى كلمة(النسيج) التي تؤشر إلى الانسجام والتضام والتماسك بين مكونات الشيء المنسوج مادياً كما تؤشر معنوياً أيضاً إلى علاقات الترابط والتماسك من خلال حَبكْ أجزاء الحكاية[٢] ".

ومعنى النسيج هذا ليس بعيداً عن مفهومه في الثقافة العربية فقد وصف عبد القاهر الجرجاني – رحمه الله – النظم في النص بالوشي والنسج.[٣]

وكذلك يرد بهذا المعنى عند ابن خلدون قوله :"اعلم أنها – يقصد صناعة الشعر – عبارة عن المنوال الذي ينسج فيه التراكيب أو القالب الذي يفرغ فيه ... ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عن العرب باعتبار الإعراب والبيان، فيرصها فيه رصاً كما يفعله البنَّاء في القالب أو النسَّاج في المنوال حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام"[٤].

فمن مفاهيم التماسك النصي ما لخصه أحد الباحثين الذي قسم أدوات التماسك النصي إلى نوعين :

- أدوات تماسك أو ترابط خارجية مثل : السياق والإحالة الخارجية .
- أدوات تماسك داخلية، منها ما هو شكلي؛ كالعطف والتكرار والمعجم، ومنها ما هو دلالي، مثل المرجعية والإبدال والحذف والتكرار بالمعنى، وأخرى مشتركة وهي العطف.[٥]

---

(١) القاموس المحيط مادة (نص دار الكتاب العربي دمشق القاهرة (د . ت د.ط صـــ٣١٩ .

(٢) الانسجام والاتساق النصي المفهوم والإشكال د/ حمودي السعيد بحث منشور في مجلـــة جامعـــة المسيلة الجزائر ٢٠١٦م . صـــ١٠٥

(٣) دلائل الإعجاز تحقيق : محمود شـــاكر مكتبـــة الخانجي القـــاهرة (١٤٠٤هـــ – ١٩٨٤م) . صـــ٤٩

(٤) المقدمة لابن خلدون دار الفكر العربي بيـــروت ٢٠٠٤م . صـــ ٥٨٩.

(٥) انظر : علم اللغة النصي صبحي الفقـــي ج ١ / ١٢٠ – ص٧٥.

والوصل بالعطف أو بغيره " تحديد للطريقة التي يترابط بها السابق مع اللاحق بشكل منظم.[١]"

ومن أنواع الوصل: الوصل الإضافي الذي يربط صورتين من صور المعلومات بالجمع بينهما، إذ تكونان متحدتين من حيث البيئة أو متشابهتين، ووظيفته تكثيف الدلالة.

ومن الوصل: الوصل السببي، الذي يقيم العلاقة بين جملتين أو أكثر وتندرج ضمن علاقات خاصة، كالنتيجة والسبب، ومنه الشرط وأدواته.

ويعرف ابن القيم الروابط الشرطية بأنها: " الأدوات التي تجعل بين جملتين تلازماً لم يفهم قبل دخولها "[٢]

ومن وسائل التماسك المعجمي التكرار والاستبدال، ووظيفة التكرار: لفت أسماع المتلقين إلى أن لهذا الكلام أهمية لا ينبغي إغفالها.

أما وظيفة الاستبدال الذي هو تعويض عنصر بعنصر آخر، فيعمل على اتساق النص داخلياً في المستوى النحوي والمعجمي بين كلمات أو عبارات[٣].

و قد تعددت مفاهيم التماسك النصي في الثقافة الغربية فمنها مفهومه عند هالي داي ورقية حسن : اللذان يمثلان المدرسة الإنجليزية يظهر ذلك المفهوم من خلال كتابهما عن الاتساق في اللغة الإنجليزية والذي تحددت فيه بعض المفاهيم مثل : النص النصية الاتساق وتحدثا فيه عن مظاهر الاتساق وكانت كالتالي: الإحالة الاستبدال الحذف الوصل الاتساق المعجمي ومعنى الاتساق[٤].

و تعددت كذلك مصطلحات التماسك النصي بفعل الترجمة من الإنجليزية إلى العربية فيترجمه محمد الخطابي إلى الاتساق[٥] في حين يترجمه تمام حسان إلى السبك[٦]

وتترجمه إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد إلى التضام[٧] إلى آخر تلك الاختلافات إلا أنه "يبدو غلبة مصطلحي التماسك والانسجام في الدراسات النصية"[٨]

---

(١) أثر عناصر الاتساق في تماسك النص محمود سليمان صـ ٨٨.

(٢) التماسك النصي في اللغتين العربية والإنجليزية دراسة تقابلية في الربط النحوي، يوسف سليمان عليان، جامعة اليرموك، الأردن، رسالة دكتوراه غير منشورة، صـ١٠٤.

(٣) انظر أثر عناصر الاتساق في تماسك النص، محمود سليمان، صـ ٨٧، ١٠٢.

(٤) لسانيات النص محمد خطابي صـ١١

(٥) لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب محمد خطابي ط١ المركز الثقافي العربي بيروت الدار البيضاء ١٩٩١م . صـ ٥-٦

(٦) النص والخطاب والإجراء روبرت دي بوجراند ترجمة د. تمام حسان ط١ مكتبة زهراء الشرق القاهرة ٢٠٠١ م . ص١٠٣.

(٧) مدخل إلى علم لغة النص تطبيقات لنظرية ديبو جراند وولفانج دريسلر إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة الطبعة الثانية ١٩٩٩ه . صـ١١.

(٨) التماسك النصي بين التراث والغرب تارا فرهاد شاكر بحث منشور في مجلة جامعة بابل العلوم

ولا يبعد مفهوم الاتساق الذي تحدث عنه هاليداي ورقية حسن عن مفهوم التماسك النصي كثيراً فمن أهم مظاهر الاتساق عندهما المرجعية التي تنقسم إلى :

- شخصية ويعنون بها الضمائر.
- إشارية ويعنون بها أسماء الإشارة
- مقارنة مثل(أفضل، أكثر)[١]

وتعد الإحالات أو المرجعيات من أهم عناصر الاتساق والتماسك النصي في ربط أجزاء النص وإن تباعدت و " تعتبر الإحالة علاقة دلالية ومن ثم لا تخضع لقيود نحوية إلا أنها تخضع لقيد دلالي وهو وجوب تطابق الخصائص الدلالية بين العنصر المحيل والعنصر المحال إليه، فالعلاقة بين المحيل والمحال إليه علاقة تطابقية وكقاعدة عامة يمكن أن تكون الإحالة مقامية أو نصية وإذا كانت نصية فإنها يمكن أن تحيل على السابق أو اللاحق[٢]".

والإحالة المقامية(الخارجية) تتمثل في السياق المحيط بالنص وتربط العنصر اللغوي في النص بعنصر إشاري خارجه وهى كما أشار هاليداي ورقية حسن " تساهم في خلق النص لكونها تربط اللغة بسياق المقام إلا أنها لا تساهم في اتساقه بشكل مباشر."[٣]

أما الإحالة النصية فتعمل على الاتساق النصي بشكل مباشر وربط أجزاء النص بعضها ببعض والإحالة النصية نوعان : قبلية وبعدية ؛ فالقبلية هى عودة العنصر الإحالي على عنصر إشاري سابق أو مذكور قبله في النص إذ يقوم العنصر الإحالي مقام العنصر الإشاري عوضاً عن تكرار ظهوره للاختصار ومن أنواع الإحالة النصية وأهمها الضمائر.

أما الإحالة البعدية فهى عودة العنصر الإحالي على عنصر إشاري لاحق أو مذكور بعده في النص، ومن ذلك ضمير الشأن في العربية وغيرها من الأساليب.[٤]

وإذا كان الضمير من أهم عناصر الإحالة النصية فإن للضمير وظيفة " نصية تتمثل في قدرة الضمير على تحقيق التماسك والترابط في النص من خلال علاقة الضمير بما يحيل أو يشير إليه ولذلك اهتم به علماء اللغة النصيون وأولوه عناية كبيرة في التحليل النصي"[٥]

وإذا عدنا إلى تراثنا . فسنجد إدراك النحاة لهذه الوظيفة النصية للضمير فقد جعله ابن هشام الأصل في الروابط النصية فقد ذكر تحت عنوان روابط الجملة بما هى خبر عنه

الإنسانية العراق م٢٢ عدد٦ ٢٠١٤م صـــ ١٣٣٠.

[١] علم اللغة النصّي بين النظرية والتطبيق د/ صبحي الفقـي دار قبـاء للطباعـة والنشـر القـاهرة، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م . ج١/١١٦

[٢] لسانيات النص محمد خطابي صـ١٧ ٢١.

[٣] لسانيات النص محمد خطابي

[٤] انظر أثر عناصر الاتساق في تماسك النص دراسة نصية من خلال سورة يوسف محمـود سـليمان الهواوشه رسالة ماجستير غير منشورة جامعـة مؤتة الأردن ٢٠٠٨م.صـ٧٠:٦٦.

[٥] علم اللغة النصي، صبحي الفقي، ج١ / ١٤٣.

أن " الضمير الأصل ؛ ولهذا يربط به مذكوراً كـــــ"زيدٌ ضربته " ومحذوفاً مرفوعاً نحو(إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ)[١] إن قُدِّرَ : لهما ساحران ومنصوباً كقراءة ابن عامر في سورة الحديد :(وَكُلا وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى)[٢][٣]

وواضح " أن ابن هشام أدرك أن الضمير في " زيد ضربته " يرجع إلى زيد وبهذه العودة إلى زيد تحقق الارتباط بين زيد المذكور في الجملة وجملة " ضربته " وكذلك أدرك أن هناك ضميراً محذوفاً في قوله تعالى(وَكُلا وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى) والتقدير "وكلاً وعده الله الحسنى" وإلا لم يكن هناك ارتباط بين كلمة " كل " والجملة التي تليها ولا بُدّ من هذا الرابط ليتحقق للنص ترابطه وتماسكه "[٤]

وهذه هى وظيفة الضمير النصية ؛ ولذا اهتم به النصيون – كما أشرنا – فالضمير ينظم تتابع الجمل بعضها ببعض ؛ لأن الجملة في الأصل مستقلة بنفسها فإذا قصد جعلها جزءاً من الخطاب فلا بدّ من واسطة تربطها بالجزء الآخر والواسطة هى الضمير.

صحيح أن الضمير مبهم يحتاج إلى ما يفسره لكن هذا الإبهام يزول حال إجراء الضمير في التركيب فيصبح الضمير أشد الأسماء تعييناً وتوضيحاً وتفسيراً كأنه أداة ربط تحدث تماسكاً في النص وقد أكد علماء النص أن الضمير(هو) من بين الضمائر الأخرى له ميزتان : " الأولى : الغياب عن الدائرة الخطابية والثانية : القدرة على إسناد أشياء معينة وتجعل هاتان الميزتان من هذا الضمير موضوعاً على قدر كبير من الأهمية في تماسك النصوص[٥]"

فالتماسك في النص باعتباره نصاً يحدث من إحالة الضمير على سابق له ومعلوم أن المحال إليه هو المعهود الذهني في ذهن المتكلم وقد تدور في ذهن المتلقّي مجموعة من التصورات تشوقه إلى معرفة مفسر الضمير وهنا يحدث الانسجام والتماسك عندما ينطق المتكلم بمقصوده تالياً للضمير، فيزول الإبهام وعدم التماسك في الخطاب عند المتلقي فتماسك النص لا يمكن أن يحدث إلاّ إذا تحققت الفائدة عند المتلقي.

وقد تتعدد إحالة الضمير وعندها لا يحدث التماسك في النص إلا بعد تحديد المحال إليه بالاعتماد على السياق الداخلي أو الخارجي أو كليهما أو أن نفسر تعدّد الإحالات ببيان أهمية التعدّد بحيث تضيف كل إحالة معنى وفائدة جديدة للمخاطب وبهذا يكون النص متماسكاً .

أما في الثقافة العربية فإن اللغويين والبلاغيين والمفسريين القدماء قد أسسوا أصولاً وقواعداً للتماسك النصي بمعناه الحديث، وإن اختلف في كيفية التنظير أو في

---

[١] سورة طه الآية (٦٣)

[٢] سورة الحديد الآية (١٠

[٣] مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ابن هشـــام دار الفكر بيروت ط٦ ج٢ صـــ٤٩٨، ١٩٨٥م .

[٤] التماسك النصي في الحديث النبوي د. عبد العزيز عبد الباري بحث منشور في مجلة جامعة المختار ليبيا ٢٠٠٩ م . صـــ٩

[٥] علم اللغة النصي صبحي الفقي ج١ / ١٦١ .

المصطلحات عن علم اللغة النصي الحديث إلا أننا نجد أنه قد تعددت آراء الباحثين العرب المحدثين في هذا المجال فمنهم من يرى أنّ اللغويين والبلاغيين العرب قد ذكروا كثيراً من أسس التماسك النصي التي أقام عليها العلماء المحدثون أصول نظرية تماسك النص وإن لم يؤسسوا نظرية عربية في هذا المجال[١]. على حين يرى بعضهم أن القدماء حاولوا أن يصلوا إلى قيم فنية لنقد النصوص ولم يكن البحث اللغوي واقفاً عند حد الجملة، لكنه لم يكن يبحث النص بالمفهوم الذي نتناوله الآن[٢] أو أن القدماء لم يفردوا باباً مستقلاً لأصول التماسك النصي ؛ ولكن تطبيقاتهم النصية تؤكد نظرتهم الشمولية للنص عامة والنص القرآني على وجه الخصوص[٣]

ومن أهم ما ذكره البلاغيون القدماء في مفهوم التماسك النصّي على المستوى النظري ما جاء في البيان والتبيين فقد نقل الجاحظ عن خلف قوله : " وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغاً واحداً وسبك سبكاً واحداً فهو يجري على اللسان كما يجري على الدهان"[٤]

فإذا كانت فكرة التماسك النصي تقوم على تحقيق الترابط والانسجام بين عناصر النص حتى تجعل النص متلاحماً ومتماسكاً فإن الجاحظ قد أشار إلى هذا التلاحم والتماسك حتى يصبح النص متماسك الأجزاء من أوله لآخره .

وقد أكد ابن قتيبية على قضية التلاحم والتناسب بين الأبيات في القصيدة فإذا وقع الخلل بغياب التناسب بين أبياتها ؛ فإن ذلك يؤدي إلى الخلل في البناء الكلي للنص الشعري فإذا رأيت – كما قال – " البيت مقروناً بغير جاره"[٥] فهو دلالة على تفكك البناء على المستوى الشكلي والدلالي.

---

(١) انظر : التماسك النصي بين الدراسات البلاغية القديمة والدراسات اللسانية النصية الحديثة خولة بنت الدين بحث منشور في جريدة الدعوة العراق ٢٠١٣ م . وانظر : التماسك النصي في الحديث النبوي د. عبد العزيز عبد الباري ص١ . وانظر: تماسك النص الأسس والأهداف، د. حسن عبد المقصود، بحث منشور بمركز تنمية العلوم واللغات جامعة عين شمس القاهرة د.ت . ص٥.

(٢) انظر : التماسك النصي بين التراث والغرب تارا فرهاد شاكر ص١٣٣١ .

(٣) انظر : وسائل التماسك النصي في شعر محمود غنيم رسالة ماجستير منشورة تحية عبد التواب أحمد عبد الباقي دار العلوم جامعة الفيوم مصر، ٢٠١١م.

(٤) تحقيق : عبد السلام هارون مكتبة الخانجي للطباعة والنشر ط٧ ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م . القاهرة . ج١ ٦٧ . وقد ذكر بشر بن المعتمر قبله أصلاً من أهم أصول التماسك النصي وهو مطالبته الكاتب التناسب بين الألفاظ والمعاني في النص الأدبي ومراعاة حال السامعين والمقام في صحيفته التي نقلها كثير من البلاغيين منهم الجاحظ. انظر البيان والتبيين ١٣٧/١.

(٥) الشعر والشعراء، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم المكتبة العصرية بيروت ط١ ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤ م . ج١/ ٢٥.

ولم يَقْصر البلاغيون القدماء الاهتمام بالتناسب والتماسك في النص الأدبي على الشعر بل إن ذلك مطلوباً في النثر قال ابن طباطبا : " وأحسن الشعر ما ينتظم في القول انتظاماً يتسق به أوله مع آخره على ما ينسّقه قائله فإن قدم بيت على بيت دخله الخلل كما يدخل الرسائل والخطب إذ انتقض تأليفها .

فإن الشعر إذا أسس تأسيس فصول الرسالة القائمة بأنفسها وكلمات الحكمة المستقلة بذاتها ....لم يحسن نظمه بل يجب أن تكون القصيدة كلها كلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها نسجاً و حسناً وفصاحة وجزالة ألفاظ ودقة معان وصواب تأليف"[١]

وعلى هذا فإن صحة الاتصال أو فساده بين أجزاء النص الأدبي شعراً كان أو نثراً من الأهمية بمكان عند البلاغيين والنقاد القدماء.

وقد كان كتابا دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني –رحمه الله –قائمين على نظرية النظم، وفحواها أن يتوخى فيها الناظم ترتيب الألفاظ حسب ترتيب المعنى في النفس فهو نظم للنص الأدبي يتفاعل فيه اللفظ مع المعنى فيكونان وحدة لا ينفصل بعضها عن بعض[٢]، وكانت الغاية من نظرية النظم عند الإمام عبد القاهر–رحمه الله – بيان إعجاز القرآن الكريم القائم على الكمال في ائتلاف النظم وتماسك البناء فهى إذن نظرية متكاملة في النظر إلى التماسك النصي بمعناه الحديث.

وقد أشاد بعض النقاد العرب المحدثين بمجهودات عبد القاهر التي تمثل المذهب الصحيح الذي يتوافق مع فكرنا ومذهبنا العربي، منهم محمد مندور الذي قال:" إن مذهب الجرجاني أصح وأحدث ما وصل إليه علم اللغة في أوربا لأيامنا هذه"[٣]

وعلى المستوى التطبيقي فقد طبّق كثير من علماء البلاغة القدماء نظرية النظم عند الإمام عبد القاهر–رحمه الله – سواء في تحليل النصوص الفصيحة كالقرآن الكريم والشعر بالنظر إلى ما فيها من انسجام وتلاؤم وتماسك نصي[٤] أو في النظر إلى الإبداع الأدبي بما

---

(١) عيار الشعر تحقيق : عبد العزيز المانع دار العلوم الرياض الطبعة الأولى ١٩٨٥م . ص ٢١٣ .

(٢) انظر : أسرار البلاغة تحقيق محمود شاكر دار المدني جدة ط١ ١٤١٢هـ – ١٩٩١م . ص٥ وإلى مثل ذلك ذهب قبله البلاغيون وبعده .

ينظر: شرح ديوان الحماسة للمرزوقي نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ط٢ ١٣٨٧هـ – ١٩٦٧ م . ج٨/١ والمثل السائر لابن الأثير قدم له وعلق عليه د/ أحمد الحوفي و د / بدوي طبانة دار نهضة مصر للطبع والنشر الفجالة القاهرة د.ت . ج ٦٣/٢ فما بعدها.

(٣) النقد المنهجي عند العرب مترجم عن الأستاذين لانسون ومايبه د. محمد مندور نهضة مصر ٢٠٠٤م . صـ٣٣٤ .

(٤) انظر : الكشاف للزمخشري ط: الحلبي ١٣٩٨ هـ وبديع القرآن لابن أبي الإصبع المصري تحقيق حفني محمد شرف نهضة مصر د.ت. والبرهان في علوم القرآن للزركشي ط : دار

يتوخاه الناظم في نظمه من التناسب بين الألفاظ والمعاني ليحقق التماسك النصي حتى يسلم من النقد والنقاد.[١]

وقد خصص العلماء القدماء النظر إلى القرآن الكريم أكثر من غيره من النصوص لما فيه من التناسب في نظمه البديع، فوقفوا عند دلائل إعجازه وأسراره وعجائبه ومن أبرز وجوه الإعجاز التي وقفوا عندها التناسب في النص القرآني وهو – كما يعرفه البقاعي رحمه الله – " علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه الحال وتتوقف الإجازة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة[٢] "

إذن فالتناسب بين أجزاء النص من أهم أسرار تماسكه وترابطه ويتوقف العلم فيه وبأسراره على معرفة المقصود من النص وقد أشار الإمام فخر الدين الرازي – رحمه الله – إلى أنّ تماسك النص قائم على ما فيه من الروابط في سياق حديثه عن ضرورة العلم بأسرار الترابط النصي في القرآن الكريم لأن " أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط[٣] " فالعلم بأسرار التناسب **في** القرآن الكريم وهو النص الكامل إنما هو طريق لفقه التناسب في غيره من النصوص الأقل قدراً في كمال النظم .

ولا شك أن المقصود من الترتيبات والروابط في قول الرازي الأدوات التي وظّفها القرآن الكريم في نظمه وتركيبه حتى كان له هذا الأداء المعجز .

وقد تحدث الإمام السيوطي عن الفائدة في المناسبة بين الآيات والسور في القرآن الكريم والترابط بين أجزاء النص القرآني في قوله :"وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء[٤] "

وهذا الذي ذكره السيوطي هو ما يكرره علماء النص في العصر الحديث أن يصبح النص متماسكاً آخذا بعضه بأعناق بعض مترابطة أجزاؤه كأنه بناء كامل.

وعلى هذا فإن تراثنا البلاغي اهتم بصناعة النص الأدبي وقد أفاض البلاغيون

احياء الكتب العربية القاهرة ١٩٥٧م . تحقيق محمد أبو الفضل والاتقان في علوم القرآن للسيوطي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط٤ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٣هـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي دار الكتاب الإسلامي القاهرة ٢٠١٠م.

[١] انظر :مقدمة ابن خلدون تحقيق درويش الجودي المكتبة العصرية بيروت ط٢ ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م . ومنهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني تحقيق :محمد الحبيب بن خوجة دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان ط٢ ١٩٨١م .

[٢] نظم الدّرر في تناسب الآيات والسور ج١ / ٦.

[٣] مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير ط٢ دارالفكر العربي بيروت ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م . ج١٢٢/٤.

[٤] الإتقان ج٣ / ٣٧١ : ٣٧٢

القدماء في الحديث عن مظاهر التماسك النصي حتى في أحدث أصوله معبرين عن ذلك بمصلحات كالحبك والسبك والتناسب والنسج والالتحام ....وكان النص القرآني هو الغالب في دراساتهم التطبيقية ؛ إذ كان القرآن الكريم هو النص النموذج الكامل في تلاحم نظمه وتناسبه[١] .

ولذا فإن أهمية البحث لا تتجلى في الكشف عن تطبيق أصول التماسك النصّي والدلالة على وجود جزورها لدى البلاغيين القدماء فقط ؛ بل الجِّدة في الكشف عنها في النصّ النبوي الشريف وتوظيفها.

الدراسة

مدخل

تحتل البلاغة النبوية الذروة العليا من البيان العربي بعد البلاغة القرآنية فالفرق بين القرآن الكريم وكلام النبي صلى الله عليه وسلم مثل الفرق بين كلام الله عز وجل وكلام الناس كما قال الباقلاني[٢] .

وقد وقع اختياري على بعض الأحاديث النبوية في تأصيل القيم الاجتماعية كنموذج للدراسة والتحليل، متناولة فيها بعض أصول التماسك النصي الحديث وجذوره عند علماء البلاغة القدماء؛ كاشفةً أهم وسائل الترابط النصّي في حديثه صلى الله عليه وسلم فكلامه صلى الله عليه وسلم – كما وصفه الجاحظ – هو الكلام الذي قلَّ عدد حروفه وكَثُر عدد معانيه وجلّ عن الصنعة ونُزِّه عن التكلف[٣]

وقد تحدث القرآن الكريم عن قدرة النبي صلى الله عليه وسلم على الكلام الفصل ودلَّ على هذه البلاغة في مناسبة تتطلب غاية التأثير وبليغ البيان لتحويل الناس من انحرافهم ونفاقهم واعوجاجهم إلى جادة الاستقامة والإخلاص كما في قوله تعالى : (فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا)[٤]

قال صاحب المنار في تعليقه على هذه الآية : " وهذه الآية شهادة للنبي صلى الله عليه

---

[١] كان سبب انشغال العلماء القدماء بالنص القرآني أكثر من غيره ليس فقط لبيان إعجازه الذي يكمن في نظمه البديع المعجز وإنما كان ذلك أيضاً للرد على كثير من المطاعن التي وجهت للقرآن الكريم.

[٢] إعجاز القرآن تحقيق السيد أحمد صقر ط دار المعارف ١٩٧٧م. صـ ٢٨١.

[٣] انظر البيان : البيان والتبيين ١٦/٢ : ١٨ .

[٤] سورة النساء بعض من الآية (٦٣)

وسلم بالقدرة على الكلام البليغ وتفويض أمر الوعظ والقول البليغ إليه لأن الكلام يختلف تأثيره باختلاف أفهام المخاطبين وهى شهادة له بالحكمة ووضع الكلام في موضعه وهذا يعني إيتاء الله تعالى نبيّه داوود عليه السلام الحكمة وفصل الخطاب وما أوتي نبي فضيلة إلا أوتي مثلها خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم "[١]

ومن هذا أنه قد ترد في الأحاديث الشريفة أسئلة من الناس فيتوقع القارئ جواباً محددا فإذا به يفاجأ بأن الجواب النبوي غير ما يتوقعه بل يكون غير ما يتوقعه السائل كأن تكون الإجابة بأسلوب طلبي كالتمني أو السؤال أو الشرط.

وسنظهر حقيقة هذا الكلام عن بلاغته صلى الله عليه وسلم وترابط كلامه واضحة جليّة فيما اخترناه من أحاديثه صلى الله عليه وسلم .

الحديث الأول

حدثنا سويد بن نصر أخبرنا عبد الله بن المبارك عن عبد الله بن الورد عن رجل قال كتب معاوية إلى عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن اكتبي إليّ كتاباً ولا تكثري عليّ فكتبت عائشة رضي الله عنها إلى معاوية : سلام عليك أما بعد ؛ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :" مَنْ الْتَمَسَ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنْ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ والسلام عليك "[٢]

ورواه ابن حبان بلفظ " من التمس رضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس ومن التمس رضا الناس بسخط الله عز وجل سخط الله عليه وأسخط عليه الناس.[٣]

يرسم الرسول الله صلى الله عليه وسلم صورة العلاقة بين رضا الله تعالى ورضا الناس في ميزان الإسلام وذلك في عبارة موجزة، وهذه العلاقة قيمة اجتماعية إن تمثلها الناس بتحكيم علاقاتهم فيما بينهم بميزان رضا

---

[١] تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار ط١ مطبعة المنار مصر ١٣٢٨هـ . ج٥ / ٢٣١.

[٢] الجامع الكبير سنن الترمذي دار الغرب الإسلامي بيروت ١٩٩٨م(٤/٦٠٩ رقم ٢٤١٤ .

[٣] صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان مؤسسة الرسالة بيروت ط٢ ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م (١/٥١٠ رقم ٢٧٦ وصحيح الجامع الصغير الألباني، المكتب الإسلامي بيروت، ١٤٠٨ – ١٩٨٨م .رقم (٦٠١٠

الله عز وجّل وثّقت عرى التواصل فيما بينهم ؛ لأن رضا الله عز وجّل هو الأصل الذي تُحكم به العلاقات بين الناس قال تعالى(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا)[1] فإن كان ذلك كذلك حلّ العدل ورُفِع الظلم لأن مما يترتب على رضا الناس ظلم الناس بعضهم بعضاً.

وهذا ما أرادته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها من اختيارها لهذا الحديث النبوي في توجيهها لمعاوية رضي الله عنه.

وإذا تتبعنا أدوات التماسك النصي التي تربط بين عناصر الحديث النبوي فهمنا مقصوده الذي أشرنا إليه آنفاً ؛ إذ إن معرفة مقصد الحديث من الدعائم التي يقوم عليها تماسك النص ومن هذه الأدوات الإحالة (المرجعية) وهى من الروابط النصية الفاعلة في الربط بين أجزاء النص كله ؛ ففي النص إحالتان إحالة خارجية(خارج النص) وإحالة داخلية(داخل النص) والإحالة الخارجية تتجلّى في مرجعية النص لقائله وهو ذات الرسول صلى الله عليه وسلم الذي روته عنه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ومعرفة المرجعية وتحديديها تحديداً دقيقاً يمثل فكّاً لشفرة النص ومفتاحاً لفهمه ولا يمكننا بعدُ أن نفكّ شفرات الضمائر في النص إلا بالرجوع إلى السياق الخارجي أو المحيط بالنص.

أما الإحالة الداخلية(النصية) فإن الضمائر وما تحيل إليها من مرجعية في السياق النصّي من العوامل التي تسهم في الربط بين أجزاء النص كله من أوله لآخره .

ففي الفعل(التمس) من قوله صلى الله عليه وسلم ضمير تقديره(هو) يعود إلى اسم الشرط(مَنْ) وهو هنا المخاطب والمخاطب غير معيّن ؛ لأن النص النبوي الشريف موجّهٌ إلى كل مسلم أراد رضا الله تعالى دون رضا الناس على أنّ السياق الخاص للحديث النبوي يتوجّه إلى معاوية رضي الله عنه وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها " تدرك بغية معاوية رضي الله عنه وحُبّه للمُلْك وحياطته باجتذابه القلوب واصطناع النفوس وأنه قد يحوم لهذا حول مساخط الله عز وجل في مراضي عباده ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه فتنفِذَ إليه هذا البلاغ لِيُنْذَر به وليتخذه دستوره ومنهاجه وليعلم أن بيد الله عز وجل قلوب العباد ونواصيهم فمن أطاعه وأرضاه رضي الله عز وجل عنه وأرضى عنه الناس ..... ومن أعرض عنه وأسخطه سخط الله عز وجل عليه، وأسخط عليه من أرضاه في سخطه"[2]

فالحديث النبوي وضع دستوراً في العلاقة بين رضا الله تعالى ورضا الناس وتلك العلاقة إذا تحققت في المجتمع وبنيت على رضا الله عز وجلّ تحقق الأمن الواقعي والاجتماعي والنفسي فيه .

---

[1] سورة مريم الآية (٩٦

[2] من ذخائر السنة النبوية علق عليها الأستاذ مجد بن أحمد مكي بحث منشور بمجلة الأزهر العدد العاشر والعدد الخامس عشر ١٣٦٣هـ.

هذا وقد تكرّر ضمير الغيبة المستتر والمتصل في النص ليحقق التماسك بين معاني الحديث النبوي الشريف ؛ إذ إن كل ضمير يعود إلى إحالة قبلية في النص تربط بين عناصره اللغوية والدلالية ففي قوله :(كفاه) و(التمس) الثانية و(وكَلَهُ) ضمائر تعود إلى المخاطب العام الذي يتوجه إليه غرض الحديث في العلاقة بين رضا الله عز وجلّ ورضا الناس وكذلك يمكننا أن نقول إن الضمائر عائدة إلى مخاطب خاص مجازاً وهو معاوية ؛ إذ أرادت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن تعرِّض به وبغيره ممن يكون في مكانه من الملك أو الولاية على أمر الناس ثم بالعموم ممن يسمع هذا الخطاب . ويمكننا تمثيل مرجعية الضمائر لبيانها بالشكل التالي :

مرجعية خارجية قبلية:

وفي الرواية الثانية للحديث النبوي كثرت الإحالة القبلية، لتكرار الضمائر

فحققت التماسك بين عناصر النص فيما يحيل إليه كُلُّ ضمير على ما قبله من ألفاظ لغوية ومعانٍ دلالية وهى في الكلمات التالية : التمس – عنه – أرضى – عنه – التمس – عليه – أسخط – عليه) .

فالضمائر عائدة في أغلبها إلى المخاطب العام وهو محور النص الذي يدور حوله غرض الحديث السالف الذكر ومنها ما هو عائد إلى ذات الله عز وجل وقد أعان على تحديد مرجعية الضمائر السياق النصي للحديث النبوي، ويمكننا تمثيل مرجعيتي الضمائر لتوضيحها بالشكل التالي:

الأولى: مرجعية خارجية قبلية:

الثانية : مرجعية داخلية قبلية :

يتضح من الرسم التمثيلي السابق أن الضمائر التي ساعدت على التماسك الشكلي بين أجزاء النص ثمانية ضمائر في ست جمل فالجملتان الأوليتان في كل منهما ضمير يعود إلى المخاطب وفي الجملة الثالثة ضميران الأول منهما يعود إلى ذات الله عز وجل والثاني إلى المخاطب ثم في الجملتين الرابعة والخامسة في كل منهما ضميران يعودان إلى المخاطب ثم في الأخيرة ضميران كالجملة الثالثة في مرجعيتهما وقد تحقق التماسك الدلالي في مرجعية كل ضمير إلى ما قبله وما أداه من معنى يربط كل أجزاء النص ثم بما يرتبط به النص بمرجعية خارجية هى قائل النص وهو(الرسول صلى الله عليه وسلم) الذي عُرِف من السياق المحيط بالنص النبوي الشريف وربط أجزائه بعضها ببعض وجعل النص متماسك البناء .

وإذا توقفنا قليلاً عند مرجعية الضمائر ودورها في التماسك الدلالي في النص سنجد أن الضمير الغائب الذي بُني عليه الحديث النبوي الذي يتوجه في مرجعيته إلى كل مخاطب تتأتّى منه الدعوة في طلب رضا الله عز وجلّ دون رضا الناس كان الضمير عنه في الجملة الأولى مستتراً في قوله :(من التمس) فأشار إلى كون المخاطب غائباً عن الحضور في الحديث عنه فإذا التمس رضا الله عز وجلّ كان غيابه بمنزلة حضوره في عناية الله عز وجلّ به وجاء الضمير التالي عن المخاطب متصلاً بالفعل الماضي ؛ ليشير إلى الصلة المستمرة المتحققة بعناية الله عز وجل به في قوله :(كفاه) فيكفيه الله عز وجل أمره وأمر الناس غائباً حاضراً ويعضد المعنى الرواية الثانية للحديث النبوي ؛ إذ تكرر الضمير المتصل مرتين في الإشارة إلى رضا الله عز وجل عن المخاطب الذي يلتمس رضا الله عز وجل دون رضا الناس في قوله:(عنه).

أما من التمس رضا الناس دون رضا الله عز وجل كان الحديث عنه غائباً أيضاً في قوله: (ومن التمس) الثانية ؛ ولكنّ الفرق بين الأول الذي يطلب رضا الله عز وجل وبين الثاني الذي يطلب رضا الناس ويفضّله أنه قد اتصل الضمير الغائب في الجملة التالية التي تشير إليه في قوله :(وكَلَهُ الله إلى الناس) ؛ لتشير إلى أنّ أمره موكل إلى الناس دون الأول الذي كفاه الله عز وجل أمره وأمر الناس وفي الرواية الثانية للحديث تكرّر الضمير المشار إلى من يلتمس رضا الناس دون رضا الله عز وجل مرتين في قوله :(عليه) ليدلّ على أنّ غيابه وحضوره مبعد عن عناية الله عز وجل وموكل إلى الناس وشتّان بين من كفاه الله عز وجل أمره عن الناس ورضي عنه وبين من وكَلَهُ الله عز وجل إلى الناس وسخط عليه!

أما الضميران الغائبان اللذان يعودان إلى ذات الله عز وجل في الرواية الثانية للحديث في قوله :(أرضى – أسخط) فنلمح منهما أن رضا الله عز وجل متحقق لمن طلب رضاه غائباً قبل أن يكون حاضراً وسخطه واقِعٌ لمن فضّل رضا الناس على رضاه عز وجل

فوجب أن يكون سخط الله عز وجل عليه غائباً لا حضور له ولا ذكر له عنده عز وجل وهذا المعنى يعضّده في الرواية الأولى للحديث النبوي فالذي طلب رضا الله عز وجل (كفاه الله مؤنة الناس) غائباّ قبل أن يكون حاضراً والذي طلب رضا الناس(وكَلَهُ الله إلى الناس) فكان غائباً عن عناية الله عز وجل لا حضور له عنده وقد وَكَل أمره إلى الناس.

ومن أدوات التماسك النصي في الحديث النبوي الشرط فقد بُني الحديث النبوي كلّه من جملتين شرطيتين اتّحدت في كل جملة جملتان من الشرط والجزاء ؛ لتشكِّل وحدة نصية(ذات معنى) ؛ فالأولى في قوله صلى الله عليه وسلم : " من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس " والثانية في قوله صلى الله عليه وسلم : ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكَلَهُ الله إلى الناس ".

وهذا الترابط بين الجملتين في كُلّ جملة من جملتي الشرط هو الذي حقق تماسك النص اللفظي والدلالي، فالترابط اللفظي في ارتباط فعل الشرط بجوابه والترابط الدلالي في افتقار جملة الشرط للجواب حيث لا يتم المعنى ولا يفهم بدونها.

ولم يكن الشرط كأحد أدوات التماسك النصي في علم النص الحديث بعيداً عن أذهان البلاغيين القدماء إذ ذكروا ما يحققه الشرط من ترابط وتماسك في المعاني بين جملتي الشرط والجزاء حتى يعقدهما بمعنى جملة واحدة كجملة الخبر للمبتدأ قال الإمام عبد القاهر في سياق حديثه عن العطف في الشرط والجزاء " الشرط كما لا يخفى في مجموع الجملتين لا في كل واحدة منهما على الانفراد ... واعلم أن سبيل الجملتين في هذا وجعلهما بمجموعهما بمنزلة الجملة الواحدة سبيلُ الجزءين تُعْقَد منهما الجملة ثم يجعل المجموع خبراً أو صفة أو حالاً ... فكما يكون الخبر والصفة والحال لا محالة في مجموع الجزءين لا في أحدهما كذلك يكون الشرط في مجموع الجملتين لا في أحدهما. وإذا علمت ذلك في الشرط فاحتذه في العطف فإنك تجده مثله سواء "[١]

وعلى هذا فإن الجملتين المعطوفتين بمنزلة الجملة الواحدة – أيضاً – في ترابطها وتماسكها وقد ربط الوصل بالعطف بين جملتي الشرط التي بُني عليها الحديث النبوي كُلّه – كما أشرنا قبل قليل[٢]– فحقق بذلك العطف الترابط بين مفاصل الحديث النبوي من أوله لآخره كترابط الأعضاء يجمعهما جسم واحد فجملتي الشرط التي بني عليها الحديث قد حققت الترابط النصي الداخلي في كل جملة منهما بين جملتي الشرط والجزاء ثم ربط العطف بينهما ؛ فأصبح النص النبوي الشريف – وهذا من بلوغ بيانه الذروة العليا صلى الله عليه وسلم – متماسك البناء تشدّ أجزاؤه بعضها بعضاً .

وللعطف مزيّة أخرى وهى إبراز التقابل بين المعاني حيث بيّنت الفرق بين من يلتمس

---

(١) دلائل الإعجاز ٢٤٦ – ٢٤٧

(٢) انظر : صـــ ٢٦ من البحث

رضا الله عز وجل وبين من يلتمس رضا الناس.

والعطف كأحد أدوات التماسك النصي لم يكن حديثاً جديداً ؛ وإنما تحدث عنه البلاغيون القدماء في باب الفصل والوصل وقد أشار الإمام عبد القاهر – رحمه الله – في النص المشار إليه قبل قليل[١] إلى التماسك النصي في الجملة المعطوفة إذ يصيّرها العطف كحكم الجملة الواحدة في المعنى .

وقد أكد البلاغيون على أهمية العلم بمواضع الفصل من الوصل ؛ لأن التناسب بين الجملتين في النص مطلباً مهماً في ترابطه وتناسبه وتماسكه والتمييز بين مواضع الفصل من الوصل له أثر واضح ينعكس على الكلام فيكسبه بلاغة وإبداعاً قال الخطيب في أهمية التفريق بين مواضع الفصل من الوصل " إن تمييز موضع أحدهما من موضع الآخر على ما تقتضيه البلاغة فن عظيم"[٢]

ونقف عند لفظة نبوية في الحديث النبوي كانت مركز المعنى في النص و قد تكررت في الجملتين المعطوفة وهى قوله صلى الله عليه وسلم :(التمس) فلم لم يقل صلى الله عليه وسلم : طلب أو اختار وما أشبهها ؟ فما الذي يوجد في هذه اللفظة من معانٍ حتى وقع اختياره عليها ؟

وإذا تلمسّنا المعنى اللغوي للالتماس نجد أن الالتماس هو : التطلب مرّه بعد أخرى[٣] وقيل الالتماس طلب باللمس ثم سُمِّي كل طلب التماساً مجازاً[٤] والالتماس يكون تارة بالقول وأخرى بالفعل كالطلب.

فالالتماس القولي هو : طلب شخص من آخر مساوٍ له والالتماس الفعلي هو : طلب شيء والسعي وراء تحصيله سواء كان الشيء مادياً أو معنوياً كالعلم.[٥]

والتمس: افتعل، كأنه يبحث وينقب ويدخل في الأشياء كأنه يطلبه مره بعد مره ولذلك يقال : إذا لمست المبيع فقد وجب البيع لأن في اللمس كعقد المبايعة والموافقة .

ومنه قوله تعالى:(أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ)[٦]، وقوله تعالى(فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ)[٧]، واللمس لا يكون إلا باليد ولهذا نص عليها القرآن الكريم من باب زيادة التعيين ودفع أي احتمال وفيها معنى : التفحص والتحري بحيث إنه لم يعد هناك شك في الاختيار .

---

(١) انظر : صـ ٢٧ من البحث

(٢) الإيضاح تحقيق لجنة من أساتذة الأزهر مطبعة السنة المحمدية القاهرة د.ت. صـ٨٣ .

(٣) انظر : الصحاح للجوهري دار العلم للملايين بيروت ط٤ ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م . ج٣ / ٩٧٥ . ولسان العرب لابن منظور دار صادر، بيروت ٢٠٠٣م . ج١٢ / ٣٢٦ .

(٤) انظر : معجم الفروق اللغوية أبو هلال العسكري مؤسسة النشر الإسلامي ط١ ١٤١٢ هـ انظر ج١/٦٥.

(٥) انظر : التعريفات لعلي الجرجاني دار الكتب العلمية بيروت ط١ ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م . ج١/٢٧.

(٦) النساء آية (٤٣

(٧) سورة الأنعام بعض الآية ٧

أما طلب فمن معانيها : محاولة وجدان الشيء وأخذه[١] ومعنى اختار اصطفى وتخيّر[٢] ففيها معنى التبعيض فلا يكون في كل أمر والالتماس كما ظهر لنا من معان أشمل وأوسع من طلب أو اختار فهو الاستمرار في الطلب مرة بعد مرة والالتماس قولي وفعلي والفعلي قد يكون مادياً ومعنوياً وهكذا نجده صلى الله عليه وسلم يؤثر فعل الالتماس على فعل الطلب أو الاختيار ؛ لئلا يجد المختار منفذاً للهروب ولا تبقى له علة ولا يقع في اللمس تزوير فلا فرار من الفعل إذاً: الفعل مقصود من فاعله والإحلال أو الاستبدال كما يسميه بعض علماء النص من أدوات التماسك النصي التي تساهم في التماسك المعجمي والدلالي في النص.

ولم يتميز النص النبوي في اختياره لمفردة(التمس) فقط التي أسهمت في ترابط النص ومعانيه بشمول الالتماس لكل معاني الطلب وحدوث أثر معنى الالتماس على المتلقي حين يلتمس في كل أحواله رضا الله عز وجل دون رضا الناس ؛ بل إن تكرار لفظ(الالتماس) – والتكرار أيضاً من أدوات التماسك النصي – في موضعين ؛ موضع طلب التماس رضا الله عز وجلّ دون رضا الناس وموضع التماس رضا الناس دون رضا الله عز وجلّ أثر أيضاً في تماسك النص بإشعار المتلقِّي بالفرق بين الالتماسين .

والتعبير في قوله صلى الله عليه وسلم(التمس) بالفعل الماضي دلالة على أن الالتماس لرضا الله عز وجلّ ينبغي أن يكون متحققاً وحاصلاً دوماً من الإنسان في كل أحواله سواء كان بالقول أو بالفعل.

وفي النص احتباك أسهم في ترابط النص النبوي وتماسكه وقوله صلى الله عليه وسلم " ومن التمس رضا الناس بسخط الله " فنتيجة ذلك أن يعامل بنقيض قصده، لهذا قال : " سخط الله عليه وأسخط عليه الناس " فألقى في قلوبهم سخطه وكراهيته .

وقوله : " بسخط الناس": الباء للعوض ؛ أي: إنه طلب ما يرضي الله ولو سخط الناس به بدلا من هذا الرضا وجواب الشرط : " رضي الله عنه وأرضى عنه الناس " .

وقوله : " رضي الله عنه وأرضى عنه الناس " :هذا ظاهر فإذا التمس العبد رضا ربه بنية صادقة رضى الله عنه ؛ لأنه أكرم من عبده وأرضى عنه الناس وذلك بما يلقي في قلوبهم من الرضا عنه ومحبته ؛ لأن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء.

ويستخلص مما سبق تفصيله أن أدوات الترابط النصي في الحديث النبوي، كالإحالة والشرط والعطف والاستبدال والتكرار، كان لها أثرها في إبراز الترابط اللفظي والمعنوي في بنيته الكلية والجزئية وما ذلك إلا لبيان المصطفى صلى الله عليه وسلم الذي منحه الله

---

[١] انظر : لسان العرب حرف الطاء طلب .

[٢] انظر : لسان العرب حرف خ خيّر

إياه وزكاه به في قوله :(وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى)[1]

الحديث الثاني

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ وَلَا تَحَسَّسُوا وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا"[2]

وفي رواية لمسلم زاد في آخره من رواية أبي صالح عن أبي هريرة:(كَمَاَ أَمَرَكُم الله)[3]

يبين الرسول صلى الله عليه وسلم على وجه الإجمال معايير التعامل الأخلاقي بين أفراد المجتمع المسلم بالنهي عن أفعال وأقوال إن سرت في المجتمع بثت الفرقة والضغينة بين أفراده وهذه المنهيات هى مقصد الحديث النبوي الذي قام عليه تماسك النص وقد سخرت من أجله أداتا التماسك: الإحالة الخارجية والإحالة الداخلية النصية وهى من الروابط الظاهرة التي تجلّت في الحديث النبوي فالمرجعية الخارجية تمثلت في المحيط الخارجي للنص وهو أن النص النبوي كلّه يرجع إلى قوله صلى الله عليه وسلم الذي رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه ولو أننا

---

[1] سور النجم : الآيات ٣ : ٥

[2] فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، دار المعرفة بيروت ١٣٩٧م، ٦٠٦٤

[3] شرح النووي على مسلم دار الخير بيروت ١٤١٦هـ-١٩٩٦م. رقم : ٢٥٦٣. ومثله عنده من طريق قتادة عن أنس انظر فتح الباري للحافظ ابن حجر العسقلاني (كتاب الأدب رقم ٦٠٦٤ .

اقتطعنا النص من سياقه الخارجي فلن نستطيع أن ندرك مرجعية الضمائر في النص التي ترجع إلى قائل الحديث وهو الرسول صلى الله عليه وسلم فالرجوع إلى السياق المحيط بالنص له أهميته في معرفة قائل النص ويعيننا على التفسير والتحديد الدقيق لمرجعية الضمير داخل النص وخارجه.

أما الإحالة الداخلية النصّية فتمثلت في الضمائر الرابطة بين الجمل في النص إذ ربط الضمير بين أجزاء النص كله حتى يغذي معنى الأخوة بين أفراد المجتمع المسلم الذي أنهى به صلى الله عليه وسلم الحديث في قوله :(وكونوا عباد الله إخوانا) وقد تجلّت الضمائر الرابطة في النص التي تغذي معنى الأخوة بما بدأه صلى الله عليه وسلم بالتحذير في قوله :(إياكم) فاتصل به ضمير خطاب يرجع إلى المخاطبين والمخاطبون لا ذكر لهم لفظاً في النص إنما فُهِم ذلك من السياق فالمرجعية فيه خارجية والمخاطبون هنا هم جماعة المسلمين الذين آمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم ثم بمن تابعهم من أمته ثم بيّن الرسول صلى الله عليه وسلم ما حذّر منه أمته بالنهي عن الظن الكاذب في قوله :(إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث) ثم تتابعت الضمائر في المنهيات التي تُبدِّدُ معنى الأخوة الذي أراده صلى الله عليه وسلم في قوله :(ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تباغضوا) وهى ضمائر للغائب ترجع إلى جماعة المسلمين أيضاً فالضمائر الرابطة في الحديث النبوي سبعة ضمائر ترجع كلها إلى المخاطبين وتضيف الرواية الثانية للحديث النبوي ضميراً ثامناً وهو كاف الخطاب في قوله صلى الله عليه وسلم :(كما أمركم الله) وهو يرجع إلى جماعة المسلمين أيضاً ويمكن تمثيلها بالشكل التالي:

وواضح أن الرواية الثانية للحديث النبوي التي زاد في آخرها – الإمام مسلم رحمه الله – (كما أمركم الله) فيها ضمير بكاف الخطاب فيكون ختاماً ربط آخر الحديث بأوله إذ بدأه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله :(إياكم) وهى الجملة الأم في الحديث و معناها التحذير والتحذير فيها عالي النبرة ؛ ليشير به صلى الله عليه وسلم إلى أهمية ما سيحذر منه وأنها أمور مهلكة لهم وفي(إياكم) تحذير مبهم متصل بضمير مفسره ما بعده فالإحالة فيه داخلية بعدية وهذا يحقق التماسك بين أجزاء النص حين يرتبط أول النص بما بعده والإبهام في التحذير يشوق السامع إلى معرفة ما بعده ويلفت انتباهه لما سيأتي وقد تنبه البلاغيون القدماء إلى ذلك يقول الخطيب القزويني – رحمه الله – : "والمعنى إذا أُلقي على سبيل الإجمال والإبهام تشوقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح فتتوجه إلى ما يرد بعد ذلك فإذا ألقي كذلك تمكن فيها فضل تمكن وكان شعورها بها أتم أو لتكمل اللذّة بالعلم به فإن الشيء إذا حصل كمال العلم به دفعة لم يتقدم حصول اللذة به ألم وإذا حصل الشعور به من وجه دون وجه تشوقت النفس إلى العلم بالمجهول فيحصل لها بسبب المعلوم لذّة وبسبب حرمانها عن الباقي ألم ثم إذا حصل لها العلم به حصلت لها لذة أخرى واللذّة عقب الألم أقوى من اللذة التي لم يتقدمها ألم"[١]

وأول ما أبان عنه المعنى بعد الإجمال بالتحذير بقوله صلى الله عليه وسلم(إياكم) هو التحذير من الظن السوء المجرد عن الدليل، فيكون الجزم به كذباً وإنما هو أشدّ من الكذب؛ " لأن الكذب في أصله مستقبح مستهجن مستغنى عن ذمه بخلاف هذا فإن صاحبه بزعمه مستند إلى شيء فوصف بكونه أشد من الكذب مبالغة في ذمه والتنفير منه وإشارة إلى أن الاغترار به أكثر من الكذب المحض لخفائه غالباً ووضوح الكذب المحض[٢]". ثم تلا التحذير عن الظن الكاذب النهي عن التحسس ومعناه البحث عن عورات الناس ثم عن التجسس وهو في معنى التحسس ولكن ذكر الثاني للتأكيد في قول من قال إن معناهما واحد.

ومنهم من قال إن المعنى فيهما مختلف؛ حكى الخطابي لا تحسسوا " معناه لا تبحثوا عن عيوب الناس ولا تتبعوها قال الله تعالى حاكياً عن يعقوب عليه السلام :((**اذهَبُوا فتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ**))[٣] وأصل هذه الكلمة التي بالمهملة من الحاسة إحدى الحواس الخمس وبالجيم من الجَسّ بمعنى اختيار الشيء باليد وهى إحدى الحواس فتكون التي بالحاء أعم وقيل : بالجيم البحث عن عوراتهم وبالحاء استماع حديث القوم ... وقيل بالجيم البحث عن بواطن الأمور وأكثر ما يقال في

---

[١] الايضاح ٩٣

[٢] فتح الباري (كتاب الأدب باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر الحافظ ابن حجر العسقلاني ٦٠٦٤ .

[٣] سورة يوسف – جزء من الآية (٨٧)

الشر وبالحاء البحث عما يدرك بحاسة العين والأذن، ورجح هذا القرطبي[١] ".

فتكرار الرسول صلى الله عليه وسلم التحذير من التحسس والتجسس إنما كان لمعرفته بنفوس البشر من تتبع أخبار بعضهم بعضا، سواء كانت حسنة أو سيئة، وقد حثّ الرسول صلى الله عليه وسلم أمته في حديث آخر على عدم التدخل في شئون الآخرين فيما لا يعنيهم بعلمهم، فما بال الأمر إن كان التحسس والتجسس دون علمهم، قال صلى الله عليه وسلم :" من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه[٢] "

وفي تكرار الرسول صلى الله عليه وسلم للفظتي التحسس والتجسس نوع من التماسك النصي، لأنه تكرار بلفظ مرادف عند من قال إن معناهما واحد، فالتكرار أدى دوره في التأكيد وزيادة التنبيه من هذه الأفعال السيئة في تتبع عورات الناس.

والتكرار من الظواهر الأسلوبية الشائعة في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم فهو جارٍ على طريقة العرب في استعمالهم إياه " في الأمور المهمة التي قد تعظم العناية بها ويخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها والاستهانة بها[٣]"

وقد التفت علماء النص إلى ميزة التكرار ودوره في تماسك النص فالتكرار كما يقول الفقي ظاهرة بيانية وظيفتها الربط على مستوى البنية الظاهرة ومن ثم تؤدّي الانسجام الداخلي في النص[٤] .

ولم يغفل البلاغيون القدماء عن ظاهرة التكرار ودورها في الدعم الأسلوبي في المقامات التي يحتاجها فها هو الجاحظ يقول : " وجملة القول في الترداد أنه ليس فيه حدّ ينتهي إليه ولا يؤتى على وصفه وإنما ذلك على قدر المستمعين ومن يحضره من العوام والخواص"[٥] .

وبعدُ؛ فقد تلا النهي عن التحسس و التجسس في الحديث النبوي الذي نحن بصدده النهي عن التحاسد وهو : تمني زوال نعمة الغير ثم تلاه نهي الرسول صلى الله عليه وسلم عن التدابر ومعناه : الإعراض ووقوع القطيعة على إثره بين المسلمين ثم تلاه نهي الرسول صلى الله عليه وسلم عن التباغض من

---

[١] فتح الباري ٦٠٦٤

[٢] رواه الترمذي وغيره (حديث حسن كتاب الزهد (٤/٥٥٨ رقم (٢٣١٧ وأحمد (٣/٢٥٩ رقم (١٧٣٧.

[٣] إعجاز القرآن للخطابي تحقيق محمد خلف ومحمد زغلول دار المعارف مصر ط٣ د.ت . صـــ٥٢

[٤] انظر :علم اللغة النصي ج٢ / ١٣٦ .

[٥] البيان والتبيين ج١ / ١٠٥-١٠٤ وانظر أيضاً في حديث البلاغيين عن التكرار : إعجاز القرآن للخطابي صـــ٥٢ والعمدة لابن رشيق تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد دار الجيل بيروت لبنان ط٥ ١٩٨١م .ج١ صـــ٦٣ والمثل السائر ٢-٣٤٥ .

تعاطٍ لأسبابه بالقول أو الفعل الذي يؤذي فيه المسلمين بعضهم بعضاً.

وفي كل ما تقدم من منهيات حذّر منها الرسول صلى الله عليه وسلم فيها ضمير غائب متصل وهو(واو الجماعة) – عدا النهي عن الظن – يرجع إلى جماعة المسلمين وقد أسهمت الضمائر في التماسك النصي وشدّ بعضه بعضاً منذ مطلع النص فالضمير في قوله صلى الله عليه وسلم :(إياكم) يرجع إلى المخاطبين بمرجعية خارجية وهى الخطاب التحذيري من النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين من أصحابه وغيرهم ثم كان في(إياكم) أيضاً مرجعية داخلية نصّية بعدية تفسِّر معنى التحذير ثم فُسِّر التحذير بالنهي عن أفعال ذميمة وكلها فيها ضمائر ترجع إلى المخاطبين في قوله : " ولا تحسسوا ولا تجسسوا ..." ثم ختم الحديث النبوي بقوله صلى الله عليه وسلم :" وكونوا عباد الله إخوانا " وهذه الجملة تشبه التعليل لما تقدم كأنه قال إذا تركتم هذه المنهيات كنتم إخوانا ويفهم منه إذا لم تتركوها صرتم أعداء فاتصل بـــــ(كونوا) ضمير يعود إلى المخاطبين أيضاً ؛ لبيان علة التحذير من المنهيات السالفة الذكر وليتحد بناء النص كله برجوع الضمير إلى المخاطبين .

وفي الرواية الثانية للحديث النبوي عند مسلم زيادة في قوله صلى الله عليه وسلم :(كما أمركم الله) فأصبحت الجملة في قوله صلى الله عليه وسلم :(وكونوا عباد الله إخواناً) قبلها بمثابة الأمر الملزم لهم ؛ لأن ما نهى عنه ليكونوا إخوانا أمرهم به الله عز وجلّ ونسبتها إلى الله عز وجل لأن الرسول صلى الله عليه وسلم مبلغ عنه عز وجلّ.

والضمير في قوله صلى الله عليه وسلم :(كما أمركم الله) ربط آخر النص بأوله – كما أسلفنا – فهو ضمير خطاب يرجع إلى المخاطبين كما في قوله صلى الله عليه وسلم(إياكم) في مطلع الحديث النبوي ؛ لبيان أن التحذير لهم من المنهيات المذكورة كان ليكونا إخواناً أي: بمنزلة الأخوة في النسب لما فيها من التراحم والشفقة وهو أمرٌ لهم من الله عز وجلّ.

ومن أدوات التماسك النصي في الحديث النبوي الشريف العطف الذي كان من الروابط الغالبة فيه حتى صَيّر الحديث النبوي كلّه في ترابطه كالجملة الواحدة.

فقد بُني النص النبوي من جمل تحذيرية عطف بعضها على بعض كان المقصد منها حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على تماسك المجتمع في قوله :(وكونوا عباد الله إخوانا) وقد رُوعي الترتيب في المنهيات التي حذّر منها صلى الله عليه وسلم حسب شيوعها وانتشارها بين الناس كثرةً وقِلَّة فالظن السيء بدون دليل هو أول ما حذر منه صلى الله عليه وسلم في الحديث ويكثر بين الناس حتى يكاد أن يكون الغالب في التعامل فيما بينهم – وهو أعلم صلى الله عليه وسلم بنفوس البشر فعلمه من الله عز وجلّ – ولذا عقّب صلى الله عليه وسلم التحذير من الظن في قوله :(إياكم والظن) بجملة تؤكد عِظَم

التحذير منه بقوله صلى الله عليه وسلم :(فإن الظن أكذب الحديث) ثم عطف عليه التحذير من التحسس الذي يتلو سوء الظن في شيوعه بين الناس فغالب الناس يتتبع بعضهم أخبار بعض سواء كان في الخير أو في الشر؛ ولذلك عطف عليه قوله :(ولا تجسسوا) لزيادة التأكيد على النهي من تلك الأفعال التي تؤدي إلى التحاسد ثم كان أقل في الانتشار قليلاً الحسد في قوله صلى الله عليه وسلم :(ولا تحاسدوا) ؛ لأن الحسد لا يكون إلا من مريضي النفوس ثم عطف عليه النهي عن التدابر الذي هو أقل أيضاً لما فُطِر عليه الناس من التراحم فيما بينهم في الغالب لذلك كان آخر المنهيات النهي عن التباغض فالتباغض غير عام وشائع بين الناس إلا بقدر ما يتعاطونه من أسبابه الموجبة له فكان الترتيب في المنهيات في الحديث النبوي من الكثير إلى القليل ثم عطف عليها الجملة الأخيرة التي هى الغرض من الحديث(وكونوا عباد الله إخوانا) فتحذيره صلى الله عليه وسلم من المنهيات السالفة الذكر إنما كان حرصاً منه على تماسك المجتمع المسلم القائم على معنى الأخوة.

ولعله قد اتضح دور العطف الذي قام به النصّ النبوي في تحقيق الترابط النصّي وتماسك بنائه.

وإذا كان العطف من أدوات التماسك النصي في علم النص الحديث، فإنه كان من أهم أدوات النص في البلاغة قديماً إلى درجة أن بعضهم حَدَّ البلاغة بأنها: معرفة الفصل والوصل[١]. وقد أشار الإمام عبد القاهر– رحمه الله – إلى أن الفصل والوصل علم من أسرار بلاغة النص وبنائه، فقال:" اعلم أن العلم بما ينبغي أن يصنع في الجملة من عطف بعضها على بعض أو ترك العطف فيها والمجيء بها منثورة تستأنف واحدة منها بعد أخرى من أسرار البلاغة"[٢]

مما سبق يتضح الترابط النصي في الحديث النبوي من خلال دور الضمائر وبعض أدوات التماسك النصي كالتكرار والعطف في تحقيق نصية النص وتماسك بنائه.

---

(١) انظر : البيان والتبيين ج١ / ٧٥ .

(٢) دلائل الإعجاز، ٢٢٢.

الحديث الثالث

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَ تَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلُ الْجَسَدِ الوَاحِدْ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِه بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى)[1] وفي رواية:(المسلمون كرجل واحد إن اشتكى عينه اشتكى كله وإن اشتكى رأسه اشتكى كله)[2]

يُصَوِّر الحديث النبوي قضية اجتماعية مهمة وهى التعاون والتفاعل بين أفراد المجتمع المسلم في جميع مناحي الحياة ويؤكد الحديث النبوي على أنه لا مجال للفرد أن يعيش وحده ؛ بل لا بُدَّ من الوحدة والتماسك بين أفراده وهذا هو مقصد الحديث النبوي الذي أعان على ترابطه وتماسك بنائه .

وإذا عرّجنا على ما قام به الحديث النبوي من أدوات التماسك النصّي بين أجزائه سنجد أن من أهمها الإحالات الخارجية المتمثلة في سياق النص الخارجي والداخلية المتمثلة في أهم عناصرها وهو الضمير والإحالة الخارجية للنص النبوي ترجع إلى ذات الرسول صلى الله عليه وسلم التي فهمت من محيط النص الخارجي المتمثل في رواية النعمان بن بشير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ إن معرفة السياق الخارجي مهم في معرفة القائل وفهم ما في النص من مرجعية داخلية وخاصة الضمائر.

أما الإحالة الداخلية فيشكّل الضمير أهم ما فيها إذ يربط بين أجزاء النص ويوثّق عرى معانيه، ففي النص سبعة ضمائر ثلاثة منها راجعة إلى المؤمنين المذكورين لفظاً في النص، فالمرجعية فيهم داخلية نصية وهى قبلية في مرجعيتها وأربعة ضمائر عائدة إلى الجسد الممثل به لصورة المؤمنين في ترابطهم وتعاونهم وهى قبلية هنا أيضاً ويمكن تمثيل المرجعيتين لبيانها بالشكل التالي :

---

[1] صحيح البخاري دار ابن كثير دمشق بيروت، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣ م كتاب الأدب ١٢/٨ وصحيح مسلم دار طيبة، الرياض المملكة العربية السعودية ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م ١٤٠/٦ .

[2] صحيح مسلم ٦ / ١٤٠ .

الأولى : مرجعية داخلية قبلية:

الثانية : مرجعية داخلية قبلية:

وقد قامت الضمائر بدورها في ترابط النص ؛ لتحقيق معنى الوحدة الذي أراده الرسول صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين وقد تآزرت الضمائر الثلاثة في قوله صلى الله عليه وسلم(مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم) العائدة إلى المؤمنين ؛ لتعضد معنى التفاعل الذي يستدعي الرحمة باشتراك الجماعة في أصل الفعل في قوله(تراحمهم) ثم تعزيزاً لمعنى التفاعل القائم على المودة والمحبة المشتركة فيما بينهم في قوله (توادهم) ثم بما يحقق التفاعل والتعاون فيما بينهم بالعطف كما يعطف الأخ الشقيق على أخيه في قوله(تعاطفهم) وقد جاء التشبيه الذي حوّل الفكرة المعنوية المتمثلة في معنى التفاعل والتعاون المطلوب في الحديث الشريف بين المؤمنين إلى شخوص ماثلة في عالم الحس والوجود فأفراد المجتمع المسلم قويهم وضعيفهم غنيهم وفقيرهم متساوون في الترابط والتراحم والتماسك والاتحاد وكذلك أعضاء الجسد الواحد ليست متساوية ففيها القوي وفيها الضعيف وفيها الأولى فالأولى وهكذا ويبيّن التشبيه الذي ضربه الرسول صلى الله عليه وسلم مثلاً لمعنى التماسك بين المؤمنين جميعاً في الشدة والرّخاء كالجسد الواحد إذا تألم منه عضو مهما صغر فالجسد كله يتألم له.

وتزيد الضمائر الأربعة التي ترجع إلى الجسد الممثّل به لحال المؤمنين في ترابطهم في تماسك النص وتآزر أجزائه فقوله صلى الله عليه وسلم(اشتكى – تداعى) فيها ضمير غائب مستتر(هو) راجع إلى مرجعية داخلية في النص وهو الجسد ثم في قوله صلى الله عليه وسلم :(له – جسده) ضميران متصلان راجعان إلى الجسد أيضاً وكلها تُصَوِّر هذه العلاقة بين أجزاء الجسد الواحد فإذا(اشتكى) منه عضو(تداعى) أعضاؤه بعضها بعضاً إلى المشاركة في الألم ثم إن اتصال الضميرين في قوله صلى الله عليه وسلم(له جسده) يدعم التماسك النصّي الشكلي الذي تعود فيه : الضمائر إلى الجسد الواحد والتماسك الدلالي الذي يؤكد معنى الارتباط بين أعضائه .

مما سبق يتضح جليّا الدور الهام الذي تقوم به الضمائر في الحديث النبوي كأدوات ترابط نصية في تحقيق نصية النص، ببناء شبكة من العلاقات التي تربط بين أجزاء النص ربطاً محكماً يتّحد فيه البناء.

وأما الرواية الثانية للحديث الشريف فقد مثلث حال المسلمين في ترابطهم – دون ذكر هذا المعنى لفظاً كالرواية الأولى – بالرجل الواحد في وحدة أعضائه وترابطها ففيه(ثمانية) ضمائر للغائب(أربعة منها) مستترة والأربعة الباقية متصلة وكلها راجعة إلى مرجعية داخلية قبلية هو الرجل الواحد الممثل به لحال ترابط المسلمين وسنمثل مرجعية الضمائر لإيضاحها بالشكل التالي :

مرجعية خارجية قبلية

وتفسير دور الضمائر في تحقيق تماسك النص يكمن في العلاقة القائمة بين أعضاء الرجل الواحد الذي إن اشتكى(هو) =(عينه) استدعى الألم لأجزائه =(كُلِّه) وإن اشتكى(هو) =(رأسه) استدعى الألم – أيضاً – أجزاءه(كُلِّه) فحققت الضمائر التماسك النصي بين أجزاء التشبيه الذي بدوره حقق المعنى المقصود في النص النبوي الشريف وهو ترابط المسلمين كترابط أعضاء الرجل الواحد .

وبما أن الحديث النبوي في الروايتين قائم على التشبيه، فإنه قد حقق دوراً في التماسك النصّي بدعم الفكرة التي من أجلها سيق لأن هناك علاقة وثيقة بين أفراد المشبه والمشبه به فكما أن أعضاء الجسد تتكاتف لمرض عضو واحدٍ فيه فأفراد المجتمع كذلك وإن كان التشبيه لا يندرج ضمن أدوات التماسك الرئيسة المتفق عليها بين النقاد المحدثين ؛ إلا أنه من فروع وسائل الاتساق الإحالية وهى المقارنة التي " تعمل في ترابط النص وتقوم على طرفين يقوي أحدهما الآخر فالمقارنة تقوي المقارن فتعمل على كسر القيد الدلالي عن المشبه وفتحه على احتمالات – الدلالة التي يقدمها المشبه به"[١]

هذا ولم يغفل البلاغيون القدماء النظر إلى دور التشبيه في ترابط النص ؛ فمن ذلك ما ذكره الإمام عبد القاهر الجرجاني – رحمه الله – من أن اختلال النظم في التشبيه يؤدي إلى فساد الصورة المكونة للمعنى من مثل قول المتنبي :

وفاؤ كما كالرَّبع أشجاه طاسِمُهْ
بأن تُسْعِدا والدمع أشفاه ساجِمهْ

الذي عدّه – الإمام عبد القاهر – مما " تعاطى الشاعر ما تعاطاه من هذا الشأن على غير الصواب وصنع في تقديم أو تأخير ... أو غير ذلك مما ليس له أن يضعه وما لا يسوغ ولا يصلح على أصول هذا العلم"[٢].

ومن أدوات التماسك النصّي التي وظّفها الحديث النبوي الشرط فقد وظّفه الرسول صلى الله عليه وسلم في جلاء معنى التشبيه الممثّل به لحال المؤمنين في تراحمهم وتعاطفهم فجملة الشرط في قوله صلى الله عليه وسلم:(إذا اشتكى منه عضوا تداعى له سائر جسده بالسّهر والحمّى) صِفَةٌ لقوله صلى الله عليه وسلم :(كمثل الجسد) وهذه الجملة أو شبه الجملة رأس جملة المشبه به وقد أتبعه الرسول صلى الله عليه وسلم بالجملة الشرطية – السالفة الذكر – لأنه يريد أن يوضح الغرض من التمثيل بالجسد الذي إذا اعتل منه عضوٌ تداعى له سائر الأعضاء بالمشاركة في الألم وكذلك ينبغي أن يكون حال المؤمنين مع بعضهم بعضا ثم إن جملة الصفة والموصوف كلها – وهى المشبه به – خبر للجملة الأولى في الحديث النبوي – وهى المشبه – في قوله

---

[١] الخطاب الشعري عند محمود درويش الجزار محمد فكري إيتراك للنشر والتوزيع القاهرة ط ٢٠٠١م . صـ١٦٤.

[٢] دلائل الإعجاز ٨٣-٨٤

صلى الله عليه وسلم: (مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم) .

وعلى هذا فإن للشرط دوراً فاعلاً في تماسك النص بدعم المعنى السياقي في النص؛ وكونه جزءاً من جملة المشبه به التي هى خبر للمشبه ؛ إذ إنّ الشرط من عناصر الاتساق اللفظية العاملة في تماسك النص بما فيه من " علاقات منطقية ذات علاقة وثيقة بعلاقة عامة وهى السبب والنتيجة "[1]، فالعلاقة بين تداعي سائر الجسد بالمشاركة في الإحساس بالألم إذا اعتل عضو منه تُصَوِّر العلاقة بين المؤمنين في قوة التفاعل فيما بينهم في التراحم والتوادّ والتعاطف .

إذن فقد جاءت الجملة الشرطية لتفيد نكتة ؛ وهى المبالغة في تصوير العلاقة بين طرفي التشبيه وسرعة دخول هذا في ذاك وكأن العلاقة بين الطرفين قد تجاوزت حدود المعاني ؛ بل وصلت المبالغة في هذا النوع من التشبيه إلى التساوي بين الطرفين .

هذا وقد وقف البلاغيون القدماء عند وظيفة الشرط في تحقيق التماسك النصي فمن ذلك ما ذكره الإمام عبد القاهر – رحمه الله – في الاستدلال بالشرط على جمال النظم إذ يقول تحت عنوان : فصل في النظم يتحد في الوضع ويدقّ فيه الصنع: " واعلم أن مما هو أصل في أن يدق النظر ويغمض المسلك في توخي المعاني التي عرفت أن تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض ويشتد ارتباط ثان منها بأول وأن يحتاج في الجملة إلى تضعها في النفس وضعاً واحداً وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع بيمينه ها هنا في حال ما يصنع بيساره هناك نعم وفي حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعها الأولين وليس مما شأنه أن يجيء على وجوه شتّى وأنحاء مختلفة فمن ذلك : أن تزاوج بين معنيين في الشرط والجزاء معاً ... وإنما كان أعجب لأن عمله أدق وطريقه أغمض ووجه المشابهة فيه أغرب"[2]

ولم يقتصر التماسك النصي الذي قام به الحديث النبوي على الضمير أو التشبيه أو الشرط ؛ بل إن هناك أدوات أخرى منها التكرار الذي يتمثل في تكرار لفظتي(مثل – والجسد) ولعلّ الغرض من تكرار لفظ(مثل) في قوله صلى الله عليه وسلم:(مثل المؤمنين ... كمثل الجسد) تأكيد العلاقة بين طرفي التشبيه التي يتحقق من خلالها الترابط الوثيق بين الطرفين، ولتكون المثلية هنا وهناك، وهى صورة واقعية ماثلة أمام المتلقي.

أما التكرار في لفظ(الجسد) فهو لتأكيد الفكرة في الأذهان، لترعاها الجنان ومن ثم تطبق في كل مكان ويظهر أثرها أمام الإنسان فتملأ عليه الأركان لعله يهتدي بهدي الرحمن فيصبح من أهل الإيمان الوارد ذكرهم في حديث النبي العدنان.

---

[1] أثر عناصر الاتساق في تماسك النص محمود سليمان صـــ ٩٠ .

[2] دلائل الإعجاز ٧٤ : ٧٦ .

إذن فقد وثّق التكرار الترابط داخل السياق النصّي مما حقق الانسجام بين الألفاظ ودلالتها.

ويعد التكرار من السمات الأسلوبية التي شاعت في الشعر العربي قديمه وحديثه وقد التفت البلاغيون القدماء إلى وظيفة التكرار في تحقيق التماسك النصي من خلال أهمية حضوره في النص لدعم المعنى في السياق الذي يقتضيه ومن السياقات التي ذكرها البلاغيون القدماء للتكرار : التوكيد أو زيادة التنبيه أو زيادة التوجع أو التحسّر أو لزيادة المدح أو للتلذذ بذكر المكرر.[١]

الحديث الرابع

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:(أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا : إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ)[٢]

يحذّر الحديث النبوي أفراد المجتمع من صفات ذميمة تفضي بهم إلى النفاق والغش والخداع كما يؤذن انتشارها في المجتمعات إلى رحيله وفتّ عضده وهى مقصد الحديث النبوي التي بُني عليها ترابطه وتماسك بنائه .

وأول أدوات الترابط النصي التي قام بها النص النبوي هى الإحالة الخارجية فالنص كُلّه عائد إلى ذات الرسول صلى الله عليه وسلم الذي رواه عنه عبد الله بن عمرو وبدون الرجوع إلى محيط النص الخارجي لا يمكننا معرفة قائل النص وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي هو بمكان عند المسلمين و هو الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يوحى.

وقد حذّر الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث من صفات مقيتة تبثّ الفرقة بين أفراد المجتمع المسلم، وتفضي بأصحابها إلى النفاق إن تحلَّوا بها ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها وقد أوجز

---

[١] انظر : أنوار الربيع في أنوار الربيع ابن معصوم المدني تحقيق : شاكر هادي شكر مطبعة النعمان النجف الأشرف العراق ط١ ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م. ج٣٤ / ٣٥:٥ .

[٢] رواه البخاري ٢٤٥٩ ومسلم ٥٨ .

الرسول صلى الله عليه وسلم الكلام عنها في ألفاظ قليلة غزيرة المعاني.

وقد بدأ صلى الله عليه وسلم الحديث بإجمال بليغ يلفت الانتباه في قوله:(أربع) ثم أبان عن هذه الأربع بعد أن بيّن خطرها على صاحبها وأولها : الأمانة في قوله :(إذا اؤتمن خان) لأن بها يصان عرض الإنسان ومالُهُ فالأمانة لا تقتصر على المال ؛ وإنما تشمل أمانة العرض وأمانة السر وأحاديث المجالس حتى أنه بلغ من حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على الأمانة أنه صان عرض المسلم في كل أحواله فأيُّ حديث من أخ مسلم لك فهو أمانة قال الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث آخر:(إذا حدّث الرجل بحديث ثم التفت فهو أمانة)[1] والالتفات أخص من الرحيل أو الخروج من المكان فالالتفات تنحِّ الرجل بوجهه عن جليسه ؛ فإذا التفت الرجل عن جليسه قد يفضي لغيره بما دار بينهما بكلام أو لمز أو همز فيؤذي أخاه المسلم أو يتسبب بفتنة بينهما فأين نحن من حفظ الأعراض !! ثم ثنّى بصفة ذميمة لا تقل أهمية عن الأمانة وهى الكذب في قوله :(إذا حدّث كذب) والتعبير بالحديث هنا ليشير إلى عموم أنواع الكلام من جدّ وهزل[2] فإذا كذب المسلم كان ذلك دالاً على فسوقه ونفاقه ثم أتبع هاتين الصفتين صفةً لا تقل خطورة عن سابقتيها وهى الغدر في قوله :(إذا عاهد غدر) والغدر من الخصال المستبشعة بين الناس سواء كان الغدر بالعهد أو الوعد الذي يكون بالكلام أو بعقود عامة أو خاصة مما يكتب بين المتعاقدين ولا تقل الصفة الرابعة عن سابقتها قبحاً وهى الفجور في قوله :(إذا خاصم فجر) والفجور في الخصام كذب وميل عن الحق مع جرأة ووقاحة ؛ لأن معنى الفجور من الانفجار والانتشار فهو يجورُ في الخصومة كذباً على الله عز وجلّ وعلى عباده وذلك من أشنع الصفات التي تنم عن خبث الطوّية وفساد النية.

وإذا عدنا لتأمل أدوات التماسك النصي التي وظّفها الحديث النبوي سنجد أن الضمائر الرابطة من أهم الروابط التي أعانت على تماسك النص ففي الحديث النبوي ثلاثة عشر ضميراً ؛ ثلاثة منها ترجع إلى قوله :(أربع) وهى الجملة الأم في الحديث النبوي[3] وقد

---

[1] رواه أبو داوود (٤٨٦٨ والترمذي (١٩٥٩) وأحمد (٣،٣٧٩ وحسنه الترمذي (١٥١٠٤ والألباني في صحيح الجامع (٤٨٦ .

[2] يشير إلى ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم : (أنا زعيم في بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه).رواه أبي داوود عن أبي أمامة رضي الله عنه (٤٠١٥) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٤٦٤) .

[3] في كلمة (أربع إبهام مفسره ما بعده من بيان وتفصيل وهى تعني أربع خصال وهذا أسلوب يستعمله الرسول صلى الله عليه وسلم للتشويق ولفت الانتباه وقد سبق أن أشرنا إلى دوره في تأكيد المعنى في نفس السامع في الحديث الثالث لأن المعنى إذا ألقى مبهما تشوقت نفس السامع

وصفت بقوله صلى الله عليه وسلم :(من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها)، فالضمائر في قوله(كنّ – منهن – يدعها) الإحالة فيها ترجع إلى قوله :(أربع) والمرجعية فيهم قبلية نصية راجعة إلى ملفوظ به في النص وتفسير دور الضمائر الراجعة إلى قوله :(أربع) في التماسك النصي للحديث كالتالي :(فمن كنّ(الأربع) فيه = كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن(الأربع) = كانت فيه خصلة منهن حتى يدعها= (الأربع) ويمكن توضيح مرجعية الضمائر بالشكل التالي :

مرجعية داخلية قبلية :

إلى معرفته فإذا أتى الكلام المبيِّن للإبهـــام بعـــده تمكن في النفس فضل تمكُّن.

والضمائر العشرة الباقية كلها ترجع إلى الإنسان المسلم وهو محور الخطاب وليس له ذكر في النصّ لفظاً فالإحالة فيها إحالة مرجعية خارجية قبلية:

خارجية قبلية دلّ عليها السياق المحيط بالنص ويمكن تمثيل مرجعية الضمائر الرابطة بالشكل التالي :

وواضح أن مركز النص النبوي هو المخاطب المسلم متمثلاً في كثرة الضمائر الراجعة إليه، فمعدّل توزيع الضمائر الراجعة إلى المخاطب عشرة ضمائر توزعت ما بين ضمير غائب مستتر(سبع مرات) وضمير غائب متصل(ثلاث مرات) بيد أنه ليس لذات المخاطب – كما أسلفنا – ذكر صريح في النص نفسه وإنما عُرِفت مرجعية الضمائر بالعودة إلى السياق فالإحالة هنا إحالة خارجية لعدم سبق ذكرها في النص النبوي.

وقد اتضح جليّا ما قامت به الضمائر من دور في تحقيق نصية النص وتماسكه ؛ ببناء شبكة من العلاقات التي تربط بين أجزاء النص ربطاً محكماً يتحد فيه البناء لفظاً ومعنى وبيان ذلك الترابط تفصيلاً : أولاً أن كان الضمير الأول العائد إلى المخاطب ضمير غائب متصل في قوله صلى الله عليه وسلم.(أربع من كنّ فيه) واتصال الضمير يشير إلى أن اتصال المخاطب بالخصال الأربع التي ذكرت في الحديث النبوي – إن اتصف بها أو بإحداها – ستؤول به إلى النفاق ولم يذكر المخاطب لفظاً وإنما بالضمير الغائب ؛ ليشير إلى عدم حضوره في الذهن وعدم الاعتراف به فرداً من أفراد المجتمع المسلم الذي يستحق الالتفات إليه بالخطاب وقد تكرّر الضمير الغائب المتصل الذي يشير إليه في قوله صلى الله عليه وسلم :(ومن كانت(فيه) خصلة منهن كانت(فيه) خصلة من النفاق حتى يدعها) فوثّقت الضمائر الراجعة إلى المخاطب بتكرارها في قوله :(فيه) المعنى وأكدّت النهي عنها وذم صاحبها ثم تتابعت الجمل الشرطية في بيان هذه الصفات الأربع التي يكون بها المسلم أو بأحدها منافقاً وربطت الضمائر بين فعل الشرط وجوابه في قوله صلى الله عليه وسلم :(إذا اؤتمن(هو) خان(هو) وإذا حدّث(هو) كذب(هو) وإذا عاهد(هو) غدر(هو) وإذا خاصم(هو) فجر(هو)فكانت الضمائر كلها راجعة إلى المخاطب المسلم(مركز النص) وهى للغائب المستتر ؛ لتشير إلى كون هذه الأفعال من الأفعال المفسدة للباطن قولاً وفعلاً كما يفسد النفاق الباطن اعتقاداً ؛ لأن النفاق في أصله الشرعي هو إظهار الإنسان غير ما يبطن والصفات المذكورة في النص النبوي تؤول به إلى النفاق الأصغر لأن فيها اختلافاً لدى الإنسان بين ما يُسرّه وما يعلنه كأن يُظْهِر الشخص الصدق و الأمانة ويبطن في داخله الكذب والخيانة فإن لم ينته عنها ربما أفضت به إلى النفاق الأكبر الذي يخرج عن الملّة .

وهكذا رأينا مما سبق أن الضمير قد حقّق التماسك النصي بين أجزاء النصّ النبوي ولم يكن ذلك على مستوى التماسك الشكلي ؛ بل على مستوى التماسك الدلالي أيضاً .

ومن أدوات التماسك النصّي في الحديث النبوي الشرط الذي كان من الظواهر الأسلوبية الغالبة في الحديث النبوي وكل الجمل الشرطية فيه تآزرت وترابطت تفصيلاً وبياناً لقوله صلى الله عليه وسلم في مطلع الحديث :(أربع) فالجملتان الأولى بعد قوله صلى الله عليه وسلم :(أربع) هما قوله :(من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها) فيها تحذير من صفات أربع لا تليق بالمسلم – سيذكرها – ويجعلها صلى الله عليه وسلم سمة المنافق ويجعل وجودها دليلاً على نفاق صاحبها؛ بل يجعل وجود الواحدة منها دليلاً على وجود شعبة من شعب النفاق يظل صاحبها يُوصم بهذا الوصم حتى يتركها.

ولا يقتصر تحقيق الترابط والتماسك على الجملتين الشرطيتين– السالفة الذكر – بين

فعل الشرط وجوابه في كل منهما ؛ بل إنّ الجملتين – كما ذكرنا – ترتبط بقوله صلى الله عليه وسلم :(أربع) – وهى الكلمة الأم في الحديث النبوي – فالجملتان خبرٌ لها ثم تلى الجملتين تفصيل وبيان(للأربع) بأربع جمل شرطية وقد بيَّن صلى الله عليه وسلم عِظَم ما فيها من الخلل الذي يقع من المسلم سواء باللسان أو بالجوارح فيجعله منافقاً أو مقارباً للمنافقين بتلك الصفات وهى :(إذا اؤتمن خان وإذا حدّث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر).

وهكذا نجد أن الشرط كان من العوامل التي ساعدت على ترابط النص النبوي وتماسكه.

وقد عضّد الترابط والتماسك النصّي في الحديث النبوي العطف الذي كان من الروابط التي ربطت بين الجمل الشرطية فيه فالعطف بين الجملتين الأولى في الحديث النبوي في قوله صلى الله عليه وسلم(من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها) ربط بين جملتين هى صفة لقوله :(أربع) ثم كان البيان للصفة في الثانية أخصّ من الأولى فاجتمع في الجملتين البيان بعد الإبهام وذكر الخاص بعد العام ؛ لتأكيد التنبيه على وقوع النفاق من الصفات التي سيذكرها مجتمعة أو من أحدها.

وهذا الطريق من التعبير الذي اجتمع فيه ألوان من البديع البياني من خصوصيات البلاغة النبوية التي تفرّد بها صلى الله عليه وسلم ثم عطف على الجملتين الشرطيتين أربع جُمَلٍ تفصيل وبيان لـــــ(أربع) – كما أشرنا في الحديث عن الشرط – وساهم العطف في الربط بين المعاني والاتساق النصي بين الجمل في الحديث النبوي معناه : الاجتماع بين الصفات المذكورة في دلالتها على النفاق فلا فرق بينها بترتيب أو تفضيل .

وإذا كان الوصل بالعطف من أدوات التماسك النصّي في علم النص الحديث فإنه كذلك من الروابط التي اهتم بها البلاغيون القدماء – كما أسلفنا – فالعطف كما قالوا: يجعل الجمل المؤلفة كعقد اللؤلؤ المنتظم، وقد أشار إلى ذلك المأمون فيما نقله عنه العسكري في ضرورة العلم بمقاطع الكلام ومواضع وصوله وفصوله؛ فإن " البلاغة إذا اعتزلتها المعرفة بمواضع الفصل والوصل كانت كاللآلئ بلا نظام "[1].

---

[1] الصناعتين، ط٢ مطبعة محمود علي صبيح القاهرة ١٩٦٠ م . صـــــــ٤٩٧.

الحديث الخامس

عن أَبي هُرَيْرَةَ رَضي الله عَنْهُ قَال، جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُول الله صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: (أُمُّكَ)، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: (أُمُّكَ)، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: (أُمُّكَ)، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: (ثُمَّ أَبُوكَ).[١]

هذا الحديث الشريف فيه قيمة اجتماعية تنبع من اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بتماسك المجتمع واستقرار الحياة الاجتماعية فيه ؛ لما في ذلك من أثر في النهوض بالأمة في جميع مناحي الحياة وهذه القيمة هى : بر الوالدين وما يترتب على البرّ من دوام الصحبة و حسن المعاملة لهما وما يؤول إليه العقوق من شرخ بين أفراد المجتمع آباء وأبناء ويكون ذلك العقوق سبباً في غضب الله عز وجلّ وعدم التوفيق للأبناء فَيُخِلّ بدورهم في بناء المجتمع المسلم .

والحديث النبوي فيه بيان لحق الوالدين في حسن الصحبة و قد فضّل فيه الرسول صلى الله عليه وسلم الأم على الأب في التأكيد على حسن صحبتها ؛ لما تكابده الأم في سبيل أولادها من الآلام في الحمل ومشقة التربية.

وتتّحد جمل النص النبوي الشريف لهذا المقصد المهم في بيان عِظَم حق الوالدين – خاصة الأم – بالصحبة لهما وما يتبع الصحبة من الطاعة والإحسان إليهما والرفق بهما .

ومن أدوات التماسك النصي التي قام بها النص النبوي الشريف الإحالة والتكرار والعطف.

أما الإحالة فهى نوعان: خارجية وداخلية، والإحالة الخارجية يمثلها السياق المحيط بالنص وهو من رواية أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم الذي روى فيه أبو هريرة رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم، ليسأله عن أحق الناس بحسن صحابته والرجوع إلى السياق يعين على التحديد الدقيق لمرجعية الضمير في النص والضمير من أهم عناصر الإحالة الداخلية .

ويشتمل النص النبوي على اثني عشر ضميراً وهي على مستويين من الضمائر الرابطة:

- الأول : يعود إلى ذات المتكلم وهو الرسول صلى الله عليه وسلم .
- الثاني : يعود إلى ذات المخاطب وهو الرجل السائل للرسول صلى الله عليه وسلم.

ومركز النص النبوي ومحوره هو المخاطب السائل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فالجملة الاستفهامية في قول الرجل: (من أحق الناس بحسن صحابتي ؟) هى الجملة المركزية في النص النبوي الشريف وما بعدها من جمل يرتبط بها ارتباطاً وثيقاً، ونجد أن مُعَدّل الضمائر الراجعة إلى المخاطب في سؤاله للرسول صلى الله عليه وسلم وتكرار السؤال من الرجل وجوابه له صلى الله عليه

[١] صحيح البخاري كتاب الأدب ٥٦٢٦ .

وسلم بلغت ثمانية ضمائر توزعت ما بين(ياء المتكلم) في الجملة الأم في قول الرجل: (صحابتي) و(ضمير الغائب المستتر) ثلاث مرات في تكرار قول الرجل :(قال) و(كاف الخطاب) أربع مرات في تكرار قوله صلى الله عليه وسلم :(أمك) ثلاث مرات ثم في قوله صلى الله عليه وسلم :(أبوك) مرة مرجعية خارجية قبلية:

واحدة والمرجعية فيها خارجية قبلية ترجع إلى السياق المحيط بالنص إذ لا ذكر لفظاً للمخاطب في النص النبوي إنما دلّ عليه السياق المتمثل في سؤال الرجل للرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه . ويمكننا تمثيل هذه المرجعية لبيانها بالشكل التالي :

أما المستوى الثاني من الضمائر : وهو الذي ترجع فيه الضمائر إلى ذات قائل النص وهو الرسول صلى الله عليه وسلم فقد بلغت (أربعة) ضمائر في تكرار قوله(قال) وهي كلها للغائب المستتر(هو) والمرجعية فيها

خارجية قبلية تعود إلى السياق المحيط بالنص الذي يجيب فيه الرسول صلى الله عليه وسلم الرجل السائل عن أحق الناس بحسن صحابته ويمكن توضيح المرجعية بتمثيلها بالشكل التالي:

مرجعية خارجية قبلية:

وقد قامت الضمائر على هذين المستويين السابقين بدورها في ترابط النص النبوي فالضمائر العائدة إلى ذات المخاطب كانت المحور والمركز الذي يدور حوله النص والجمل كلها في النص النبوي ترتبط به وتشد المعنى إليه كذلك والضمائر العائدة إلى ذات الرسول صلى الله عليه وسلم ترتبط بالمخاطب الذي يجيبه صلى الله عليه وسلم عن سؤاله.

وقد شكل الاستفهام والجواب عليه من الرسول صلى الله عليه وسلم الأداة الرئيسة للترابط في النص النبوي فقد بدأ الحديث النبوي بسؤال الرجل عن أحق الناس بحسن صحابته وكان الجواب من الرسول صلى الله عليه وسلم ثم تتابع السؤال من الرجل والجواب منه صلى الله عليه وسلم حتى نهاية الحديث والاستفهام في الحديث النبوي استفهام حقيقي بـــ(مَنْ) التي يُطلب بها التصوّر وهو إدراك المفرد على وجه التعيين حيث إن المستفهم مترددٌ في تعيين أحد الشيئين وهذا التصور الذي لم يحصل ؛ ولذا يستفهم عنه.

والاستفهام من أنواع الوصل السببي، وهو أحد فروع وسائل الاتساق الإحالية الذي " يقوم على روابط منطقية غير لفظية القائم على العلاقة العامة ؛ السبب والنتيجة المنطقي

بين الفعل وسبب حدوثه وما بين القول ومقوله والإجابة عن الاستفهام"[١]

وقد أسهم التكرار في قول الرجل :(قال) وقول الرسول صلى الله عليه وسلم :(قال) و(أمك) مع تكرار الضمائر ومرجعّيتها إلى ما قبلها من ألفاظ في تماسك بناء النص النبوي والتكرار من أدوات التماسك النصي الذي يعمل " على زيادة ترابط النص فالمنشئ عندما يكرر صوتا أو كلمة أو عبارة في نص فإنه يعيد معها معناها... فالتكرار هو عملية إعادة جزء من أجزاء الكلام وهذه الإعادة تكون باللفظ والمعنى أو تكون بالمعنى دون اللفظ وهو ما يسهم في التماسك النصي داخل الخطاب من حيث الرجوع إلى الكلام الأول كُلّما أحسّ المنشئ بضرورة ذلك "[٢] فدلالة التكرار في قوله للرجل :(قال) مع ضميره وكون الضمير غائباً مستتراً يطوي تحته معاني البحث والكشف عند الرجل السائل عن أحق الناس بحسن الصحبة ؛ لأن الإنسان يحتاج إلى من يكابد معه في الحياة ويقف معه ويشاركه همومه ويشاطره أفراحه ولولا الصحبة لفقدت الحياة قدراً كبيراً من لذتها فالسؤال الذي ظلّ يطرق ذهن الصحابي بإلحاح دون أن يهدأ هو سؤال لا جواب له إلا عند من أدبه وعلمه ربه عز وجلّ فكان الجواب الذي أجاب به النبي صلى الله عليه وسلم على غير المتوقع ؛ وهنا تتجلى البلاغة النبوية بالأسلوب الحكيم الذي يتلقى السائل فيه بغير ما يترقب تنبيهاً على أنه الأولى بحاله والمهم له كما يقول البلاغيون[٣]

إذ يتوقع المرء أن يكون تحديداً لأسماء اشتهروا بدماثة الخلق ورجاحة العقل ولكنه عليه الصلاة والسلام قال :(أمك) نعم الأم هى أحق الناس بالصحبة ويكرر الصحابي السؤال عمّن يكون بعدها في المرتبة الثانية فيعود الجواب كالمرة الأولى(أمك) وبعد الثالثة يشير صلى الله عليه وسلم إلى(الأب) فالتكرار في قوله صلى الله عليه وسلم:(أمك) يعظّم حق الأم بحسن الصحبة فهى ليست أيّ صحبة إنما هى صحبة تكون بالطاعة والتوقير والإكبار وجميل الكلام ولطيف العبارة وخفض الجناح وكأن للأم ثلاثة أضعاف ما للأب .

وتكرار ضمير الخطاب في قوله صلى الله عليه وسلم :(أمك) يدلّ على مواجهة حاضرة بين الرسول صلى الله عليه وسلم والرجل تجعل المعنى حاضراً ومتعلقاً في ذهنه وذهن كل من يصل إليه الخطاب .

وتكمن وظيفة التكرار في تأثيرها " النفسي على المتلقي من حيث توجيه الإنسان إلى الالتزام عبر تهيئة النفس في المرة الأولى

---

[١] أثر عناصر الاتساق في تماسك النص محمود سليمان صـ٨٨.

[٢] من أنواع التماسك النصي (التكرار – الضمير – العطف) مراد حميد عبد الله، مجلة جامعة ذي قار، البصرة، العدد الخاص، المجلد ٥، ٢٠١٠م صـ٥٣.

[٣] انظر : الإيضاح للخطيب القزويني ١/١٦٠.

والتأكيد عليها في المرة الأخرى"[١] بل إن السيوطي جعله " أبلغ من التوكيد وهو من محاسن الفصاحة"[٢] .

وفي إضافة الأم لضمير الخطاب إيجاز واختصار اقتضاه المقام عمل على التماسك النصي في الإيجاز باللفظ والمعنى وقد أشار البلاغيون القدماء إلى وظيفة التعريف بالإضافة وكونها أقصر طريق وأوجزه في وصول المعنى إلى المتلقي[٣] .

ثم إني أجد في اتصال ضمير الخطاب في قوله صلى الله عليه وسلم :(أمك) و(أبوك) معنى الملاصقة الوثيقة ودوام الصحبة للأم ثم للأب كذلك فلم يقل صلى الله عليه وسلم(الأم) أو(الأب) إنما قال :(أمك) و(أبوك) تنبيهاً إلى أنها(أمك) أنت أيها المخاطب هى التي تستحق حسن الصحبة ودوامها ثم كذلك للأب.

ولعلي أشير إلى أن عدم ذكر اسم الصحابي السائل لرسول الله صلى الله عليه وسلم دلالة على العموم لكل رجل ؛ لأن الغرض الذي أراده أبو هريرة رضي الله عنه من رواية الحديث هو البيان عن أحق الناس بحسن الصحبة ولا يخص الجواب شخصاً بعينه.

وعلى هذا فإن لفظ(رجل) قد تطلق على الرجل والمرأة حكى ابن الأعرابي : أن أبا زياد الكلابي قال في حديث له مع امرأته : فتهايج الرجلان يعني نفسه وامرأته كأنه أراد فتهايج الرجل والرجلة فغلب المذكر[٤] .

وتذكر كلمة رجل في الغالب من طريقين:

- أولاً : بيان النوع ولا تكاد تجد هذا إلا في المواطن الدنيوية التي يجتمع فيها الجميع من خلق وتوزيع للإرث وما إلى ذلك .
- ثانياً : بيان الصفة التي يجب أن يكون عليها المسلم سواء أكان رجلاً أم امرأة ولا تكاد تجد هذه الصفة إلا في المواطن التي يحبها الله عز وجلّ ويحب من تمثلوها ولذلك ميز هؤلاء عن الذكور.

والرجل المقصود في الحديث النبوي : هو الذي أخضع نفسه وذاته لمنهج الله عز وجلّ فهماً وسلوكاً سواء رجلاً أو امرأة ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم غلّب الرجل في حسن مصاحبته أمه ؛ لأن المرأة إذا تزوجت كان حكمها بيد زوجها، ولا يعني ذلك إهمالها لأمها بحسن صحبتها ولكن يكون ذلك بقدر استطاعتها أمّا الرجل فإن أمره بيده وعليه أن يلازم أمه دوماً بحسن الصحبة ولا يفضلها على أحد.

ومن أدوات التماسك النصي التي قام بها الحديث النبوي أيضاً العطف، وهو وصل الكلام بعضه ببعض فيصبح كالسلسلة يتبع اللاحق منه السابق شكلاً ودلالة، وأدوات العطف ما هي إلا "علامات على أنواع

---

[١] من أنواع التماسك النصي مراد حميد عبد الله صـــ ٥٤ .

[٢] الإتقان في علوم القرآن ج٣ / ١٩٩ .

[٣] انظر : الإيضاح للخطيب القزويني ج١ / ٢٤ .

[٤] لسان العرب رجل .

العلاقات القائمة بين الجمل وبها تتماسك الجمل وتبين مفاصل النظام الذي يقوم عليه النص"[١].

والعطف كعنصر من عناصر التماسك النصي ليس بالحديث فقد تحدث عنه علماء البلاغة القدماء – كما أسلفنا مراراً – في باب الفصل والوصل وقد جعله بعضهم البلاغة بأسرها وهو كما قال عنه الإمام عبد القاهر – رحمه الله –: " خفي غامض ودقيق صعب[٢]".

وقد ارتبطت جمل النص النبوي الشريف بحرف العطف(ثم) وكان له دوره في تماسك النص فدلالة الترتيب مع التراخي التي يحملها الحرف(ثم) دلّ على أن حق الأم بحسن الصحبة من الأولويات التي تجب على الرجل حتى مع وجود الأخوان والأصحاب ونلمح أيضاً معنى آخر لا يقل أهمية عن الأول حينما كرر الرسول صلى الله عليه وسلم: (أمك) ثلاث مرات بعد التكرار في سؤال الرجل(ثم من) وهو أن حق الأم باقٍ حتى مع طول الزمن وامتداد العمر وإن نسيت أيها الرجل فالزم صحبة أمك ولا يكون أحد من زوجة أو أبناء أو إخوان أو أصحاب أحق من الأم على الرجل ثم يتلوها الأب وقد تكرر العطف بـــ(ثم) ؛ ليشير إلى تأكيد فوق تأكيد بتفضيل حق الأم ثم الأب على كل من تصاحب أيها الرجل.

الحديث السادس

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضِي الله عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : رَغِمَ أَنْفُ ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ قِيلَ : مَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : "مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا فَلَمْ يَدْخُلْ الْجَنَّةَ[٣] ".

في الحديث النبوي السابق بين الرسول صلى الله عليه وسلم حق الوالدين على الأولاد وتفضيل الأم على الأب في ذلك . ولما كان التفضيل قد يوهم عند البعض التقصير في حق الأب و بخاصة عند الكبر، أردفته بهذا الحديث النبوي الذي ينص على حقهما معاً من البر والإحسان ووصية الرسول صلى الله عليه وسلم بالوالدين إنما هي تأكيد لقوله تعالى :(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا)[٤]

فمقصد الحديث النبوي والغرض فيه هو وصية الرسول صلى الله عليه وسلم بالوالدين معاً وخاصة عند الكبر ومعرفة المقصد في الحديث النبوي من أهم عناصر التماسك في بنائه .

وقد أشار البلاغيون القدماء إلى أنّ معرفة المقصد في النص من أهم أدوات التناسب والتماسك النصي فقد ذكر البقاعي –

---

[١] الميزان في تفسير القرآن، للطبطبائي، أشرف على طباعته الشيخ حسين الأعلمي، منشورات الأعلمي للمطبوعـــات، بيـــروت، ط١، ١٩٩٧م. ج١٥ / ٣٧٥.

[٢] دلائل الإعجاز، ٢٣١ .

[٣] صحيح مسلم بشرح النووي كتاب البر والصلة والآداب ٢٥٥١ .

[٤] سورة الإسراء – الآية (٢٣

رحمه الله – وهو بصدد الحديث عن التناسب في النص القرآني : أن سر البلاغة في التناسب " تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه الحال وتتوقف الإجازة فيه على معرفة المقصود من السورة المطلوب ذلك فيها ويفيد ذلك معرفة المقصود من جملها[١] ".

فمعرفة مقصود النص هو الطريق لفهم المعنى الذي يكشف الستار عن الوسائل والأدوات النصية التي وظّفها مؤلف النص لتحقيق الترابط النصّي.

ومن أدوات التماسك النصّي التي قام بها الحديث النبوي الإحالة ؛ وهى خارجية مقامية وداخلية نصية والإحالة الخارجية تتمثل في السياق المحيط بالنص وهو من رواية أبي هريرة رضي الله عنه الذي روى فيه حواراً دار بين النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم وهو أن الرسول صلى الله عليه وسلم كرّر فيه الدعاء بالذل بقوله :(رغم أنف) ثلاث مرات فتبعه سؤال من صحابته رضوان الله عليهم عن المقصود بالدعاء.

أما الإحالة الداخلية فيمثل الضمير أهم عناصرها حيث إن النص النبوي يقوم على ثلاثة مستويات من الضمائر :

- الأول: يعود إلى المخاطب (والمخاطب عام)
- والثاني : يعود إلى ذات المتكلم (وهو الرسول صلى الله عليه وسلم).
- والثالث : يعود إلى الوالدين.

والمخاطب هو مركز النص ؛ فلذا كان عدد الضمائر الراجعة إليه ستة ضمائر وتتفرع ضمائر هذا المستوى إلى مرجعيتين المرجعيّة الأولى داخلية بعدية والمرجعية الثانية خارجية قبلية وترتبط الأولى بالثانية ارتباطاً وثيقاً يحقق تماسك النص من أطرافه فالمرجعية الأولى في الحديث النبوي هى من الضمائر المستترة في قوله صلى الله عليه وسلم :(رغم أنف) وهى أول جمل الحديث النبوي ومرجعيتها راجعة إلى الجملة الأخيرة في الحديث النبوي وهى قوله صلى الله عليه وسلم :(من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كليهما ...). ويمكن تمثيل المرجعية بالشكل التالي لتوضيحها:

[١] نظم الدرر ج١ ٦

مرجعية داخلية بعدية:

والمرجعية الثانية التي ترجع إلى المخاطب أيضاً لا يقصد بها مخاطباً معيناً إنما هو عام لكل من أدرك أبويه المتمثلة في حوار الرسول صلى الله عليه وسلم مع أصحابه في قوله(رغم أنف) وما تبعه من سؤال أصحابه رضوان الله عليهم(من يا رسول الله ؟) وليس للمخاطب ذكر صريح في الحديث النبوي فالمرجعية فيه خارجية قبلية ويمكن تمثيلها لبيانها بالتالي:

مرجعية خارجية قبلية

والمستوى الثاني من الضمائر يرجع إلى المتكلم وهو الرسول صلى الله عليه وسلم و يتفرع إلى مرجعيتين أيضاً الأولى خارجية قبلية في قوله صلى الله عليه وسلم :(قال) في مطلع الحديث النبوي وهى ترجع إليه صلى الله عليه وسلم وليس للرسول صلى الله عليه وسلم ذكر في الحديث قبل القول وفهمت المرجعيّة من محيط النص الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم والمرجعية الثانية داخلية قبلية تتجلّى في رواية أبي هريرة رضي الله عنه بقوله صلى الله عليه وسلم : (قال) بعد إجابته صلى الله عليه وسلم على سؤال أصحابه رضوان الله عليهم في قولهم :(من يا رسول الله ؟). ويمكن تمثيل المرجعتين بالشكل التالي :

الأولى : مرجعية خارجية قبلية :

الثانية: مرجعية داخلية قبلية :

أما المستوى الأخير من الضمائر فإن المرجعية فيه داخلية قبلية وهي في قوله صلى الله عليه وسلم :(أحدهما – كليهما) وترجع إلى الوالدين المذكورين لفظاً في النص في قوله صلى الله عليه وسلم :(أبويه) قبلهما وهما ضميران متصلان للغائب ونمثل المرجعية لبيانها بالشكل التالي:

مرجعية داخلية قبلية :

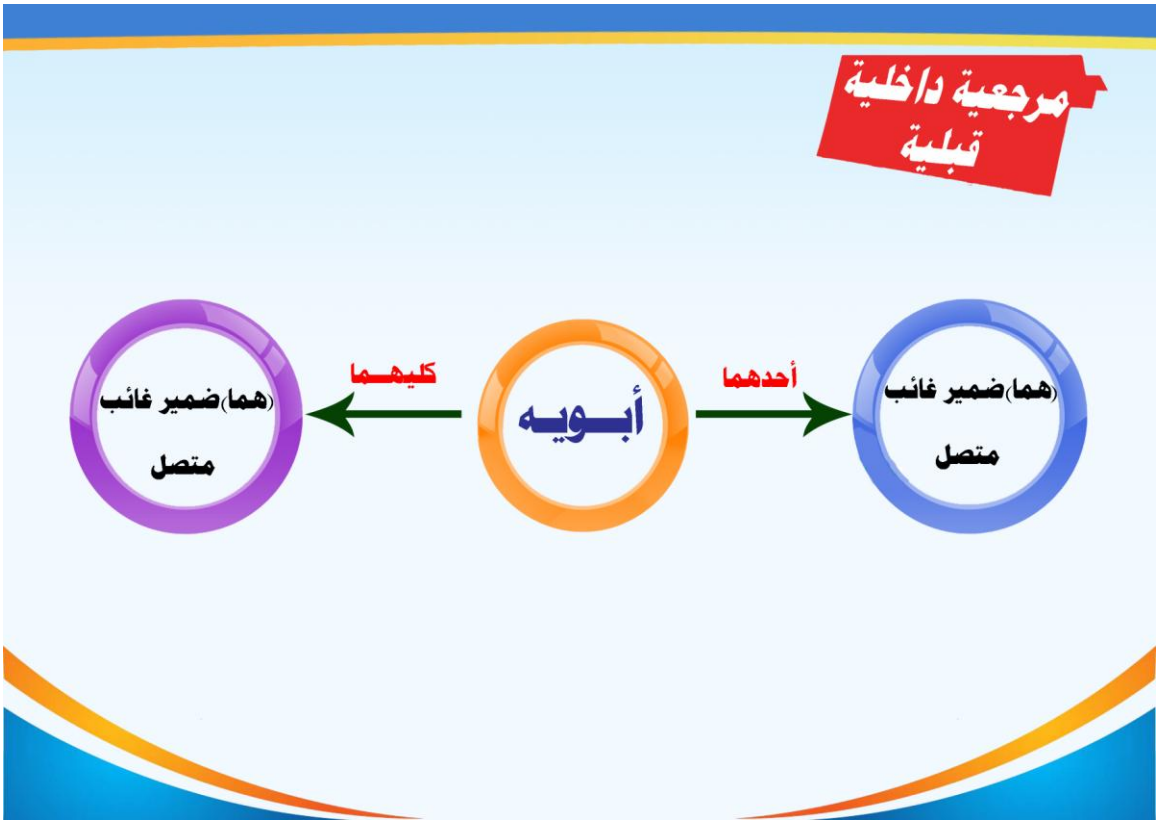

الضمائر ومرجعياتها في النص النبوي أنها أسهمت في التماسك بين أجزائه ووثّقت بين عناصره بعضها ببعض ؛ إذ إن الضمائر في المرجعية الأولى التي ترجع إلى المخاطب في قوله صلى الله عليه وسلم :(رغم أنف) في مطلع الحديث ثلاث مرات ترجع مرجعيتها إلى الجملة الأخيرة في قوله صلى الله عليه وسلم :(من أدرك أبويه أو كليهما ...) فتربط بين مفاصل النص من أوله لآخره ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم :(رغم أنف) أي رغم أنف وذلّ " يقال أرغم الله أنفه : أي ألزقه بالرغام وهو التراب هذا هو الأصل ثم استعمل في الذلّ و العجز عن الانتصاف و الانقياد على كره[١] ".

وإيثار النبي صلى الله عليه وسلم التعبير بالأنف على ما جرت به عادة العرب في استعماله في مقامات عدَّة منها زيادة التنفير والتحذير[٢] كما هو الغرض من الحديث.

وفي اختيار النبي صلى الله عليه وسلم الدعاء بالتعبير الكنائي بقوله :(رغم أنف) بدلاً من أن يقول : ذلّ وخزي هو نوع من أدوات التماسك النصي الذي يسمى بالإحلال أو التبادل وهذا ما يميز النص النبوي ؛ إذ يجمع صلى الله عليه وسلم " الخالص من سر اللغة ومن البيان والحكمة بعضها إلى بعض[٣] " ثم إن قوله صلى الله عليه وسلم (رغم أنف) مكرر ثلاث مرات أتى لشد انتباه المتلقي لمعرفة ما يريد قوله صلى الله عليه وسلم فإذا أتى الجواب تمكّن في نفس المتلقي فضل تمكّن ؛ لذا قال أصحابه رضوان الله عليهم بعد هذا التكرار :(من يا رسول الله ؟) فجاء قوله صلى الله عليه وسلم :(قال) في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه للتفسير والتوضيح وربط الضمير في قوله صلى الله عليه وسلم :(قال) هنا بقوله :(قال) في مطلع الحديث النبوي فربطت الضمائر بين مفاصل النص وهذه هي المرجعية الثانية ثم تتابعت الضمائر التي ترجع إلى المخاطب ؛ لأنه هو المقصود بالغرض في الجملة التفسيرية في قوله صلى الله عليه وسلم :(من أدرك أبويه أحدهما أو كليهما فلم يدخل الجنة) . ونلمح التماسك النصي الدلالي في دلالة ضمائر الغائب التي ترجع إلى المخاطب هنا وبين الضمائر التي ترجع إلى المخاطب في مطلع الحديث النبوي وهو : أن من أهمل أبويه كان كأنه غير مدرك لوجودهما في حياته ومن ثم غير مدرك لباب من أبواب الجنة فكأنه قد غيّب عقله عن إدراك ما له من الأجر برعاية أبويه والإحسان إليهما وخاصة عند الكبر فذّل وخزي وفاته باب من أبواب دخول الجنة وقد شدّت الضمائر التي ترجع إلى المخاطب في الجملة التفسيرية أواصر النص ؛ إذ إن هناك ضميرين في بداية الجملة في قوله صلى الله عليه وسلم(من أدرك – أبويه) وضمير في آخرها في قوله صلى الله عليه وسلم(فلم يدخل الجنة).

---

[١] لسان العرب رغم .

[٢] انظر لسان العرب ج/٦ رغم.

[٣] تاريخ آداب العرب للرافعي دار الكتاب العربي لبنان ط٢ ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م. ج٢ / ٣٢٦.

أما الضميران اللذين يرجعان إلى الوالدين في قوله صلى الله عليه وسلم(أحدهما أو كليهما) فيعملان على تحقيق التماسك النصّي أيضاً بين أجزاء الجملة التفسيرية في مرجعية الضمائر إلى ما قبلها من عناصر في قوله صلى الله عليه وسلم(من أدرك أبويه أحدهما أو كليهما ...) وهذه هى المرجعية الثالثة ثم إن كون الضميرين متصلين يشير من طرف خفي إلى معنى الملاصقة والديمومة في المصاحبة والإحسان للوالدين.

ومن أدوات التماسك النصي في الحديث النبوي الشريف التكرار في قوله صلى الله عليه وسلم(رغم انف) ثلاث مرات ويعمل التكرار على إثارة التوقع لدى المتلقي وتشويقه إلى معرفة المقصود والتكرار يدعم التماسك النصي من خلال قيامه " بالدعم الدلالي لمفردات محددة في النص وإبقائه عليها في بؤرة التعبير[١] " وإن الأثر الذي يتركه التكرار في النص يكمن في " وظيفته الاتصالية الإقناعية فهو وسيلة لغوية من وسائل الحجاج خاصة في الحجاج العربي وهو بشقيه اللفظي والمعنوي يقوم بدوره في إقناع المتلقي والتأثير فيه واستمالته وقد يصل إلى الإذعان له وذلك بشدة القرع إما على اللفظ أو المعنى[٢] ".

ويشير بعض الباحثين المحدثين إلى أن التكرار اتجاه معاكس للبلاغة العربية القديمة وقد "تأثرت البلاغة الجديدة بعلوم النص فتجاوزت الدراسة فيها الجملة إلى النص مما جعل الفصل بين العلمين مطلباً عسيراً[٣]". إلا أني أجد أن البلاغة العربية القديمة لم تقصر اهتمامها على دراسة التكرار على مستوى الجملة فقط؛ بل تجاوزت به إلى النص وأثره على المتلقي فمن ذلك ما ذكره الجاحظ عن التكرار ووظيفته في الإفهام لدى المتلقين، فقال:" وجملة القول في الترداد أنه ليس فيه حدّ ينتهي إليه ولا يؤتى على وصفه وإنما ذلك على قدر المستمعين ومن يحضره من العوام والخواص[٤] " فقد أكد الجاحظ بهذه القاعدة أن البلاغة القديمة لم تقف عند تكرار الجملة فقط كما أشار بعض المحدثين وإنما امتدت إلى مراتب أخرى حسب مقتضى حال السامعين.

وقد التفت ابن جني إلى المغزى الذي يستعمل فيه التكرار عند العرب، فقال : " إن العرب إذا أرادت المعنى مكنته واحتاطت له فمن ذلك التوكيد وهو على ضربين أحدهما :

---

(١) أثر التكرار في التماسك النصي مقاربة معجمية تطبيقه في ضوء مقالات د. خالد المنيف د. نوال إبراهيم الحلوة بحث منشور بمجلة جامعة أم القرى العدد الثامن رجب ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢م . صـ٢٥.

(٢) أثر التكرار في التماسك النصي مقاربة معجمية تطبيقه في ضوء مقالات د. خالد المنيف د. نوال إبراهيم الحلوة صـ ٢٥.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) البيان والتبيين ج١ / ١٠٥.

تكرير الأول بلفظه وأما الضرب الثاني فهو تكرار الأول بمعناه[١] ".

فالتكرار أحد دعائم المعنى في النص وتماسك بنائه عند العرب، وما ذكره ابن جني عن العرب في أنواع التكرار هو نفسه ما ذكره علماء النص عن أنواع التكرار؛ ولكن بمصطلحات بعضها جديد وبعضها موجود بذاته في البلاغة العربية القديمة فمن ذلك ما ذكره أحد علماء النص عن أنواع التكرار وهو رافائيل سالكي وهو عنده ينقسم إلى قسمين : الأول : التكرار اللفظي والثاني : التكرار النمطي ويتناول الأول : تكرار الكلمة بلفظها وليست أي كلمة يمكن تكرارها ؛ ليكون النص متماسكاً ؛ بل الكلمات المهمة في النص هى التي تتكرر فتفيد التماسك النصّي والثاني : وهو تكرار أنماط الكلمات يقول عنها سالكي :" فضلاً عن تكرار الكلمات فإن بعض النصوص تكرر أنماط الكلمات .

هذه ملاحظة عامة في الكلام، غير أن مجرد تكرار الكلمات أحياناً لا يكون كافياً لجعل النص متماسكاً بدلاً من تكرار الكلمة ذاتها، بعض النصوص تستخدم وسيلة تماسك أخرى، فتستخدم الكلمة ثم تستخدم مرادفاً للكلمة، والمرادف كلمة لها نفس معنى كلمة أخرى[٢]".

فالنوع الأول من التكرار عند سالكي التكرار اللفظي وهو بعينه النوع الأول الذي ذكره ابن جني والثاني: التكرار النمطي، وهو كما اتضح من نص سالكي، النوع الثاني الذي ذكره ابن جني وهو تكرار الأول بمعناه كالمرادف للكلمة.

وقد استقر كثير من مباحث التكرار عن البلاغيين القدماء في باب الإطناب وهو من أبواب علم المعاني أحد علوم البلاغة الذي يهتم بالجملة ووظيفتها في النص، والغرض البلاغي من التكرار في الحديث النبوي في قوله : صلى الله عليه وسلم(رغم أنف) إبراز المعنى وتقريره في النفس[٣] .

وقد عطفت الجملة الدعائية المكررة بـــ (ثم) في قوله صلى الله عليه وسلم :(رغم أنف ثم رغم أنف ثم رغم انف) والعطف من أدوات التماسك النصي الذي قام بدوره بالربط بين الجمل أما غرض العطف ب(ثم) فإنه – كما يذكر البلاغيون القدماء – أبلغ في التحذير حيث نُزِّل بعد المرتبة منزلة البعد الزمني فعطف بـــ(ثم) وفي هذا دلالة على التدرج والارتقاء في التحذير[٤] فالإتيان بـــ(ثم)

---

(١) الخصائص، تحقيق محمد علي النجـــار، المكتبـــة العلمية، بيروت، لبنان، ١٣٧١هـــ – ١٩٥٢ م ج٣ / ١٠٤.

(٢) تماسك النص الأسس والأهداف، د. حسن عبد المقصود، صـــــ٦، وانظر أيضاً، لسانيات النص، محمد خطابي، ٢٣٧ فقد نقل فيه محمد خطابي عن هاليداي ورقية حسن عن التكرار بحديث مقارب لسالكي

(٣) انظر: أغراض التكرار عند البلاغيين، الإيضاح، للخطيب القزويني، صـــ ٩٣:١٤.

(٤) انظر المصدر السابق نفسه، وانظر: علم المعاني لبسيوني فيود، مؤسسة المختار، القاهرة، دار المعالم الثقافية، الإحساء، المملكة العربية

إشارة إلى صعوبة المقام وإبطائه فكأنه لذلك كالبعيد الحصول فعبر فيه بذلك.

وجملة الدعاء المكررة في الحديث النبوي(رغم أنف) مبهمة أزال غموضها جوابه صلى الله عليه وسلم عن سؤال أصحابه رضوان الله عليهم عن المقصود بالدعاء في قوله :(من يا رسول الله ؟) فقال صلى الله عليه وسلم :(من أدرك أبويه أحدهما أو كليهما ...) وفي الإيضاح بعد الإبهام في جوابه صلى الله عليه وسلم يتحقق نوع من التماسك النصي وإن لم يكن ضمن أدوات التماسك الرئيسة التي أشار إليها علماء النص الحديث والتماسك متحقق – أيضاً – في ارتباط الجواب بالسؤال كارتباط المسند بالمسند إليه في أن كلاً منهما يكمل معنى الآخر وقد أشار البلاغيون القدماء إلى هذا الترابط في جملة الإيضاح بعد الإبهام إذ إن " المعنى إذا ألقي على سبيل الإجمال والإبهام – كما قال الخطيب – تشوقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح فتتوجه إلى ما يرد بعد ذلك فإذا ألقى كذلك تمكن فيها فضل تمكن وكان شعورها به أتم"[1].

وفي جملة الإيضاح في قوله صلى الله عليه وسلم :(من أدرك أبويه أحدهما أو كليهما فلم يدخل الجنة) تتجلّى البلاغة النبوية في تحقيق التماسك النصي؛ لكونها وقعت جواباً – عن سؤال الصحابة رضوان الله عليهم – بُني على حذف المسند إليه وإقامة المسند مقامه وتقديره :(الراغم أنفه من أدرك ...) فوثق الجواب الترابط بين مقاطع النص من أوله إلى آخره .

ولم يقتصر التماسك النصي على المقاطع الكبرى في الحديث النبوي ؛ بل امتد إلى الوحدات اللغوية التي كونت المقطع فأول الوحدات اللغوية(من) وهى موصولة ومتضمنةً معنى الشرط ودخول الفاء هنا لما في الكلام من معنى الشرط وهى رابطة للإبهام الذي في :(من) فأشبه الكلام الشرط وهذا كما قال سيبويه : الذي قام فله درهمان ؛ فيحسن دخول الفاء إذا كان القيام سبب الإعطاء .

وقد قرر الجمهور في جواز دخول الفاء على الخبر الموصول إذا كانت الصلة جملة فعلية زمنها مستقبل تصلح أن تكون جملة للشرط نحو :(الذي أتاني فله درهم) ولا يجيزون : الذي قام أمس فله درهمان لأن هذه الفاء إنما دخلت في خبر الموصول لشبهه بالشرط فكما أن فعل الشرط لا يكون ماضياً من حيث المعنى فكذلك الصلة .

وعليه فإن الفاء الرابطة وثقت الترابط والتماسك بين مقاطع الجواب لشبهه في المعنى بالشرط والمعنى فيها : أن الإحسان إلى الوالدين سبب في دخول الجنة إضافة إلى أن العطف وهو من أدوات التماسك النصي يصير الجمل كحكم الجملة الواحدة في المعنى

السعودية، ط١، ١٤١٩هـ–١٩٩٨م. ج٢ / ٢٠٤.

(١) الإيضاح، صـ ٩٣.

كما أشار الإمام عبد القاهر الجرجاني[1]– رحمه الله – مما يزيد التماسك النصي ترابطاً وإحكاماً.

ومن أدوات التماسك النصي اللفظي والدلالي في بناء جملة الجواب أن قيدت الجملة الفعلية بقوله صلى الله عليه وسلم :(عند الكبر) وقد دل القيد على مزيد من التأكيد لكمال الحاجة، فالابتداء بالوالدين عند الكبر أتم بمزيد حاجتهما لضعفهما فكان القيام بحقهما آكد، ثم إن في قوله صلى الله عليه وسلم :(أحدهما أو كليهما) – وهو بدل من أبويه – تعقيبٌ أفاد دفع توهم أن العناية والبر إنما تكون في اجتماعهما دون وجود أحدهما.

وختاماً أقول : مما سبق يتضح جلياً الدور الهام الذي تقوم به وسائل التماسك النصي في الحديث النبوي، كالإحالة المقامية المتمثلة في السياق المحيط بالنص والإحالة النصية التي يشكل الضمير أهم عناصرها والوصل بالعطف والاتساق المعجمي كالتكرار والاستبدال وغيرها من أدوات التماسك النصي في تحقيق نصية النص ببناء شبكة من العلاقات والروابط التي تربط بين أجزاء النص ربطاً محكماً يتحد فيه البناء وهذا ما يميّز النص النبوي الذي حقق الترابط والتماسك فيما استعمله النبي صلى الله عليه وسلم من أدوات البلاغة.

ومن أهم ما يشار إليه في ختام هذا البحث أن الحديث النبوي يمثل نموذجاً بيانياً عالياً في تناوله لأدوات التماسك النصي ؛ لأن الله عز وجل منّ عليه ووفقه فمنحه القدرة على بناء الكلام البليغ المتماسك البناء في نظم ألفاظه و معانيه وفي قوة تأثيره على المتلقين وانجذابهم له .

وإن علماء البلاغة القدماء قد قدموا نظرية في التماسك النصي تتجلّى في نظرية النظم التي بلورها الإمام عبد القاهر الجرجاني – رحمه الله – بالاستفادة ممن قبله من البلاغيين، ثم استفاد منها البلاغيون بعده إما في تقعيد البلاغة التي تعتبر المقاييس الفنية التي يتحقق بها بناء النص الأدبي أو في دراسة النصوص وتحليلها لتنمية الذوق العربي، وتعميق الإحساس بجمال العربية وآدابها .

وتوصي الباحثة بمعايشة المزيد من النصوص الفصيحة كالقرآن الكريم والحديث النبوي والشعر العربي وخاصة القديم منه ؛ لبيان ما فيها من تماسك نصي وبيان العلاقة بين أدوات التماسك النصي الحديث وعلم البلاغة القديم وما حققه في الحديث عن أصول التماسك النصي وصلاحيته في تحليل النصوص وبيان قيمتها الفنية ، والحمد لله أولاً وآخراً .

---

[1] انظر نص عبد القاهر صـــ ٢٧ من البحث

المراجع

المراجع

م	المراجع
١	الإتقان في علوم القرآن السيوطي تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ط٤ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٤هـ.
٢	أثر التكرار في التماسك النصي مقاربة معجمية تطبيقية في ضوء مقالات د. خالد المنيف د. نوال إبراهيم الحلوة بحث منشور في مجلة جامعة أم القرى العدد الثامن رجب ١٤٣٣هـ -٢٠١٢م.
٣	أثر عناصر الاتساق في تماسك النص دراسة نصية من خلال سورة يوسف محمود سليمان الهواوشة رسالة ماجستير غير منشورة جامعة مؤتة الأردن ٢٠٠٨م.
٤	أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود شاكر، دار المدني، جدة ط١، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.
٥	إعجاز القرآن الباقلاني تحقيق : أحمد صقر ط دار المعارف ١٩٧٧م.
٦	إعجاز القرآن الخطابي ضمن ثلاثة رسائل في إعجاز القرآن تحقيق : محمد خلف ومحمد زغلول دا المعارف مصر ط٣ د.ت.
٧	الانسجام والاتساق النصّي المفهوم والإشكال د. حمودي السعيد بحث منشور في مجلة جامعة المسيلة الجزائر ٢٠١٦م.
٨	أنوار الربيع في أنوار البديع ابن معصوم المدني تحقيق : شاكر هادي شاكر مطبعة النعمان النجف الأشرف العراق ط١، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.

٩	الإيضاح الخطيب القزويني تحقيق : لجنة من أساتذة الأزهر مطبعة السنة المحمدية القاهرة د.ت.
١٠	بديع القرآن ابن أبي الإصبع المصري تحقيق : حفني محمد شرف نهضة مصر د.ت.
١١	البرهان في علوم القرآن الزركشي ط : دار إحياء الكتب العربية القاهرة ١٩٥٧م.
١٢	البيان والتبيين الجاحظ تحقيق : عبد السلام هارون مكتبة الخانجي للطباعة والنشر القاهرة ط٧ ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
١٣	تاريخ آداب العرب الرافعي دار الكتاب العربي لبنان ط٢ ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤م .
١٤	التعريفات علي الجرجاني دار الكتب العلمية بيروت ط١ ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
١٥	تفسير القرآن الحكيم(تفسير المنار) ط١ مطبعة المنار مصر ١٣٢٨هـ.
١٦	التماسك النصي بين التراث والغرب تارا فرهاد شاكر بحث منشور في مجلة جامعة بابل العراق العلوم الإنسانية م٢٢ عدد ٦ ٢٠١٤م.
١٧	التماسك النصّي في الحديث النبوي د. عبد العزيز عبد الباري بحث منشور في مجلة جامعة المختار ليبيا ٢٠٠٩م.
١٨	التماسك النصّي بين الدراسات البلاغية القديمة والدراسات اللسانية النصية الحديثة، خولة بنت الدين، بحث منشور في جريدة الدعوة، العراق ٢٠١٣م.
١٩	التماسك النصّي في اللغتين العربية والإنجليزية دراسة تقابلية في الربط النحوي يوسف سليمان عليان جامعة اليرموك الأردن رسالة دكتوراه غير منشورة.
٢٠	تماسك النص الأسس والأهداف د. حسن عبد المقصود بحث منشور بمركز تنمية العلوم واللغات جامعة عين شمس القاهرة د.ت .

٢١	الجامع الكبير سنن الترمذي دار الغرب الإسلامي بيروت ١٩٩٨م .
٢٢	الخصائص ابن جني تحقيق : محمد علي النجار دار الكتاب العربي بيروت لبنان ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م .
٢٣	الخطاب الشعري عند محمود درويش الجزار محمد فكري إيتراك للنشر والتوزيع القاهرة ط ٢٠٠١م.
٢٤	دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني تحقيق : محمود شاكر مكتبة الخانجي القاهرة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
٢٥	شرح ديوان الحماسة المرزوقي نشره : أحمد أمين وعبد السلام هارون مطبعة لجنة التأليف والنشر القاهرة ط٢ ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.
٢٦	شرح النووي على مسلم دار الخير بيروت ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
٢٧	الشعر والشعراء ابن قتيبة تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم المكتبة العصرية بيروت ط١ ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
٢٨	الصحاح الجوهري دار العلم للملايين بيروت ط٤ ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
٢٩	صحيح البخاري دار ابن كثير، دمشق بيروت ١٤١٤هـ - ١٩٩٣هـ.
٣٠	صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان مؤسسة الرسالة بيروت ط٢ ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
٣١	صحيح الجامع الصغير الألباني المكتب الإسلامي بيروت ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٣٢	صحيح مسلم دار طيبة، الرياض المملكة العربية السعودية، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
٣٣	الصناعتين أبو هلال العسكري مطبعة محمود علي صبيح القاهرة ط٢ ١٩٦٠م.
٣٤	علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، د. صبحي الفقي، دار قباء للطباعة والنشر القاهرة ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
٣٥	علم المعاني بسيوني فيود مؤسسة المختار القاهرة دار المعالم الثقافية الإحساء المملكة العربية السعودية ط١ ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
٣٦	العمدة في محاسن الشعر وآدابه ابن رشيق القيرواني تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد دار الجيل بيروت لبنان ط٥ ١٩٨١م.
٣٧	عيار الشعر ابن طباطبا تحقيق : عبد العزيز المانع دار العلوم الرياض ط١ ١٩٨٥م.
٣٨	فتح الباري شرح صحيح البخاري ابن حجر العسقلاني دار المعرفة بيروت ١٣٧٩هـ.
٣٩	القاموس المحيط الفيروز أبادي مادة دار الكتاب العربي دمشق القاهرة د.ت د.ط.
٤٠	الكشاف الزمخشري ط : الحلبي ١٣٩٨هـ .
٤١	لسان العرب ابن منظور دار صادر بيروت ٢٠٠٣م.

٤٢	لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب محمد خطابي ط١ المركز الثقافي العربي بيروت الدار البيضاء ١٩٩١م.
٤٣	المثل السائر، ابن الأثير قدم له وعلق عليه د. أحمد الحوفي و د . بدوي طبانة دار نهضة مصر للطبع والنشر الفجالة القاهرة د.ت.
٤٤	مدخل إلى علم لغة النص تطبيقات لنظرية ديبو جراند وولفانج دريسلر إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ط٢ ١٩٩٩م.
٤٥	مغني اللبيب ابن هشام دار الفكر بيروت ط٦ ١٩٨٥م.
٤٦	معجم الفروق اللغوية أبو هلال العسكري مؤسسة النشر الإسلامي ط١ ١٤١٢هـ
٤٧	مفاتيح الغيب، المشتهر بالتفسير الكبير، الرازي، ط٢، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.
٤٨	المقدمة ابن خلدون دار الفكر بيروت ٢٠٠٤م. وبتحقيق درويش الجودي المكتبة العصرية بيروت ط٢ ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م.
٤٩	من أنواع التماسك النصي(التكرار – الضمير – الحذف) مراد حميد عبد الله بحث منشور في جامعة ذي قار البصرة العدد الخاص مجلد ٥ ٢٠١٠م.
٥٠	من ذخائر السنة النبوية علق عليها الأستاذ مجد بن أحمد مكي بحث منشور بمجلة جامعة الأزهر القاهرة عدد ١٠ وعدد ١٥ ١٣٦٣هـ.
٥١	منهاج البلغاء وسراج البلغاء حازم القرطاجني تحقيق : محمد الحبيب خوجة دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان ط٢ ١٩٨١م.

٥٢	الميزان في تفسير القرآن للطباطبائي أشرف على طباعته الشيخ حسين الأعلمي منشورات دار الأعلمي للمطبوعات بيروت ط١ ١٩٩٧م.
٥٣	النص والخطاب والإجراء روبرت دي بوجراند ترجمة : د. تمام حسان ط١ مكتبة زهراء الشرق القاهرة ٢٠٠١م.
٥٤	نظم الدرر في تناسب الآيات والسور البقاعي دار الكتاب الإسلامي دمشق، القاهرة ٢٠١٠م.
٥٥	النقد المنهجي عند العرب، مترجم عن الأستاذين لانسون ومايبه، ترجمة: محمد مندور، نهضة مصر، ٢٠٠٤م.
٥٦	وسائل التماسك النصي في شعر محمود غنيم رسالة ماجستير منشورة تحية عبد التواب أحمد عبد الباقي، دار العلوم جامعة الفيوم مصر ٢٠١١م.